8

الترويج للحرب

يوم الاثنين الواقع في السادس عشر من أيلول، سبتمبر، كنت برفقة الرئيس في رحلة لمدة يوم واحد إلى مدينة دافينبورت، في ولاية أيوا. كان يخطط لإلقاء كلمة يحث فيها مجلس الشيوخ للموافقة على الميزانية التي تتضمن تمويلاً كاملاً للأولويات المهمة في الوقت الذي تقلصت النفقات المالية في مجالات أخرى. كنت بصفتي نائباً للسكرتير الصحفي أحل محل آري فليشر الذي قرر أن يأخذ استراحة من العرض الرئاسي المسافر براً.

وبينما كانت «رسالة اليوم» التي تلاها تتركز حول ضبط النفقات المالية، فقد استمر الرئيس في الحديث عن العراق مردداً ما قاله من قبل في خطابه الموجه إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك منذ أيام مضت. كان خطابه في الأمم المتحدة مؤشراً على بداية جهد تبذله الإدارة بعناية وتخطيط دقيقين في حملة تصعيدٍ تهدف إلى كسب الرأي العام في مواجهة عسكرية محتملة. عرض الرئيس الخطوط العريضة للقضية التي أثارها ضد نظام صدام حسين – قمعه الوحشي لأبناء شعبه، تجاهله الخادع والمدبر لقرارات مجلس الأمن الدولي التابع للأمم المتحدة المطالبة بإزالة الأسلحة البيولوجية والكيميائية لديه، واهتمامه بتطوير أسلحة نووية، ودعمه للإرهاب. أكد بوش أن هذه الأفعال جعلت من نظام صدام حسين «خطراً جدياً ومتزايداً» لا يمكن تجاهله بعد الآن في عالم ما بعد الحادي عشر من أيلول. ثم أوضح بشكل لا يقبل التأويل نواياه المتأصلة في سياسة سبق له أن حدد ملامحها قبل أشهر عدة:

سوف تعمل بلادي بالتعاون مع مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة لمواجهة هذا التحدي المشترك. إذا أظهر النظام العراقي تحدياً لنا مرة أخرى، فسوف يتحرك العالم بثبات وبشكل حاسم لمحاسبة العراق على أفعاله. سوف نعمل بالتعاون مع مجلس الأمن

مـن أجل إصـدار القرارات الضرورية. ولكن لا يجوز أن يساور أحد الشك بنوايا الولايات المتحـدة. سوف يتم تطبيـق قرارات مجلس الأمن - وإلا فسـوف تتخذ إجراءات لا يمكن تجنب عواقبها. والنظام الذي فقد شرعيته سوف يفقد سلطته.

في هـذا البيـت الأبيض الذي كان يتباهـى أن أهم رسالة له هـي الانضباط، أسهم خطـاب بوش في التأسيس لنقاش يدور حول «تعريـف الأمريكيـين بالأخطار المحدقة بهـم» (كما وصفنـا حملتنا التـي روجت للحرب). استخـدم الرئيس بوش وفريقه في مجلس الأمن القومي، بالإضافة إلى كبار مستشاريه منبر الأمم المتحدة لإبراز خطورة هـذا التهديد، وضرورة مجابهتـه. ربما كانوا يعلمون أن الضغط الدولي لن ينجح في أن يفرض على صدام حسين أن يظهر براءته من هذه التهم باختياره، وهو ما دعا تشيني إلى الاعتقـاد بـأن طريق الأمم المتحدة غير مُجدٍ. المرة الوحيـدة التي التزم بها صدام كانـت إثر الهزيمـة العسكرية المدوية التـي مني بها في حرب الخليـج سنة 1991. لكن الغالبيـة رأت أن من الضروري إقناع الناس أن الجهـود الدبلوماسية قد استنفذت قبل شـن الحرب. من هنا أتى الإنذار الذي وجهه بوش - إما أن تتصرف الأمم المتحدة من دون أي تسويـف، ومـن دون تسامح مع أي خدع جديدة من قبـل النظام العراقي، أو أن الولايات المتحدة سوف تقود حملة عسكرية بالطريقة التي يفهمها.

كان مناخ الرأي العام ميالاً إلى موقف البيت الأبيض، طالما أن هجمات الحادي عشر مـن أيلول بقيت حيـة في ذاكرة الأمريكيـين. قبل أسبوع من ذلـك الخطاب، وفي خطاب ألقـاه في جزيرة إيلليس، احتفل الرئيس بالذكرى الأولى لهجمات الحادي عشر من أيلول بطريقة استعراضية رائعة حيث كان تمثال الحرية إلى أحد جانبيه، وكان العلم الأمريكي يرفـرف إلى الجانـب الآخر. تحدث الرئيس عن الاستجابة إلى نـداء التاريخ الذي يدعو إلى نشر الحرية، ولمّح إلى موضوع العراق قائلاً: «لن نسمح لأي إرهابي أو طاغية بتهديد الحضـارة بأسلحة الدمار الشامل. الآن أو في المستقبـل، سيعيش الأمريكيون أحراراً من دون خـوف، ولـن يكونوا أبداً تحت رحمة أي مؤامرة أو أي سلطة». بطبيعة الحال، لم يكن كل الأمريكيـين يدعمـون فكرة المواجهة مع العراق. ارتفعت نسبـة مؤيدي إسقاط صدام

حسين بالوسائل العسكرية إلى مستوي 74 بالمائة سنة 2001. ولكن مع نهاية صيف 2002، وبالتزامـن مع القلق الذي عبر عنه حلفاء الولايـات المتحدة، والمحللون العسكريون بشأن كلفـة الغزو من ناحيـة القوة العسكرية والأمـوال، فقد انخفض هذا الدعـم إلى مستوى أغلبيـة طفيفة استنـاداً إلى استطلاع غالوب الـذي مولته صحيفة «يو. إس. إي تودي». ولكـن ثمانيـة من بين كل عشـرة أمريكيـين كانوا يعتقـدون أن نظام صـدام حسين كان يدعـم المنظمات الإرهابية التي تخطـط لمهاجمة أمريكة، وكان تسعة من أصل عشرة من الأمريكيـين يعتقدون أنه يمتلك أسلحة دمار شامل، أو أنه يعمل على تطويرها. كما كانت الأغلبيـة من المستطلعة آراؤهم يعتقدون – خطـأً – أن صدام حسين متورط في هجمات الحادي عشر من أيلول.

وفـرت العناصـر الأخرى في المعادلـة السياسية أيضـاً قوة أكبر في يـد الرئيس. فقد انخفض معدل التأييد الشعبي الذي يحظى به الرئيس من النسبة التي لم يسبق لها مثيل والتـي بلغـت 90 بالمائة بعد هجمات الحـادي عشر من أيلول مباشـرة، ولكن تلك النسبة كانـت ما تـزال مرتفعة، حيث راوحـت في منتصف الستينيات. كانت آلـة الحملة التابعة لبوش تتكون من فريق من المستشارين في شؤون الأمن القومي المؤهلين تأهيلاً عالياً، وكان أهم هؤلاء تشيني، وباول، ورمسفيلد، ورايس؛ ولحظ جميع هؤلاء أن مواقعهم قد تعززت بفضل النجاح الأولي السريع الذي تحقق في أفغانستان.

الأكـثر من ذلك، ونظـراً لأن انتخابـات الكونغرس النصفية كانت علـى بعد شهرين فقـط، فقد تعرضـ أعضاء الكونغرس، وخصوصـاً أولئك الذين يمثلـون دوائر انتخابية معتدلة أو ميالة قليلاً إلى المحافظين، لضغوط شديدة بسبب وقوفهم في وجه فريق الرئيس المتشـدد خصوصاً في مرحلة ما بعد هجمات الحادي عشر من أيلول. وبالنسبة إلى بعض الديمقراطيـين على الأقل، بمن فيهم أولئك الذين لديهم طموحات مستقبلية في الترشح للرئاسة، كان الوقوف ضد جهود البيت الأبيض والرئيس بوش لمواجهة صدام حسين يمثل خطـراً أكبر بكثير على مستقبلهم السياسي مـن خطر مسايرته في مقاربة هذا الموضوع؛

خصوصـاً في بيئة يدعـم فيها الأمريكيون القلقون من احتمـال حصول هجمات جديدة، مقاربة أكثر تشدداً بالنسبة إلى الموضوعات المتعلقة بالأمن القومي.

وهكـذا كانت الرياح تجري بما تشتهي سفن بوش وفريقه الذي بدأ بشن حملته لإقناع الأمريكيـين أن الحرب على العراق مسألة حتمية وضرورية. كانت اللمسات الأخيرة لهذا المخطـط قد تمت بعناية كبيرة خلال فصل الصيف؛ والآن، في أيلول سنة 2001، أضحى الوقـت مناسباً لوضعه موضع التنفيذ. (وكما عبر عن ذلك آندي كارد في حديث أدلى به إلى صحيفـة نيويـورك تايمز، «من وجهة النظر الترويجيـة، فأنت لا تعرض بضاعتك في شهـر آب، أغسطـس».) ولكن في اليوم الذي بدأ الرئيس بوش رحلته إلى ولاية أيوا، كانت آلة إدارته المُشَحّمَةُ بشكل جيد تتحرك بصوت مسموع.

نشرت صحيفة (وول ستريت جورنال) صباح ذلك اليوم، حديثاً لكبير مستشاري بوش الاقتصاديـين لاري ليندسي يعرض فيه رأياً تحليلياً لكلفـة الحرب المحتملة على العراق: ما بين مائة إلى مائتي بليون دولاراً. أضاف قائلاً إن هذه التكلفة لن يكون لها سوى تأثير طفيـف على اقتصاد الولايـات المتحدة طالما أنهـا لن تشكل سوى نسبـة تتراوح بين 1و2 بالمائة من الناتج الإجمالي الأمريكي المحلي.

اطلعت على الخبر بعد ولوجي إلى مكتبي مباشرة، بما أن هذه الصحيفة هي واحدة من الصحـف التي طلب آري إليّ أن أطلع عليها كجزء من النظام الذي يؤسس له، والمتضمن التأكد من أن كل شخص في الفريق الصحفي قد قرأ واحدة من كبريات الصحف الوطنية مطلـع كل صباح. كان هذا جـزءاً من شبكة إنذار مبكر يساعـد السكرتير الصحفي (أو نائبـه) في معرفة القضايا التي عليه مناقشتها مع كبار الموظفين في الاجتماع الصباحي، بطريقة تجعله ملماً بكل الموضوعات خلال فترة اللقاء الصحفي.

كانـت الأرقام التي ذكرهـا ليندسي مثيرة للدهشـة. وهي مثيرة للسخريـة نوعاً ما. بالعودة إلى تلك الأرقام من منظور أيامنا هذه، وبعد مرور خمس سنوات على بدء الحرب على العراق، فإن هذه الأرقام تبدو متدنية بشكل واضح (بالرغم من أن ليندسي افترض أن هـذه الكلفـة ستكون لحـرب تمتد لفترة أقصـر). ولكن في ذلك الحـين، عندما توقع

العديد - خصوصاً من أركان الإدارة - حرباً سريعة وسهلة نسبياً، تعقبها مرحلة انتقالية سلسة نوعاً ما، تمولها عائدات العراق من النفط بدرجة كبيرة، ربما كانوا تحت تأثير نوع من المخدرات.

لكـن خطأ ليندسي الأكبر لم يكن في حجم الأرقام التي اختار أن يذكرها. كان مجرد ذكـر أرقامٍ يعـد في حد ذاته خطأ كبيراً. فالحديث عن الكلفة المحتملة لحربٍ ما تزال في عهـدة المستقبل لم يكن جزءاً من المخطط المرسوم للحـرب، خصوصاً عندما كان البيت الأبيض في المراحـل الأولى الحاسمـة من بناء قاعـدة عريضة من الدعـم الشعبي لهذا المخطط. في الواقع، لم تكن أيٌّ من النتائج غير السارة لهذه الحرب - الخسائر البشرية، والآثار الاقتصادية، والمخاطر الجيوبوليتيكية، والارتدادات الدبلوماسية - جزءاً من هذه الرسالة. فقد كنا آنئذٍ في مرحلة التجييش لصالح الحملة، تماماً كما كنا عندما جالَ بوش في طول البلاد وعرضها وهو يقود حملة من أجل خفض الضرائب وإصلاح التعليم. كانت المرحلـة الأولى تلك، تهدف إلى إقناع الرأي العام أن التهديد جِديٌّ، ويحتاج إلى مواجهة مـن دون أي تأخـير. وهكذا فقد كانت الإشـارة إلى أي كلف بشريـة أو مالية محتملة، أو مناقشتها تصب في مصلحة منتقدينا، أو المعارضين للحرب.

خرق ليندسي القاعدة الأولى لرسالة البيت الأبيض في عهد بوش والتي تتضمن ضرورة الانضبـاط: لا تقم بـأي تصريح إخباري من دون الحصول علـى إذن بذلك. أدى الخرق الـذي قام به ليندسـي إلى جعل فكرة الترويج للحرب أكثر صعوبة. وكون هذا الخرق أتى في اليـوم نفسه الـذي ركز فيه بوش على أهميـة خفض النفقات الماليـة، فإنه قدم أيضاً للديمقراطيين حجةً لاتهام رسالة الرئيس بالنفاق.

حالمـا قرأت الصحيفة، عرفت أن أحداً في البيـت الأبيض لن يكون سعيداً، وأكثر من سيكون منزعجاً من هذه القصة هو الرئيس نفسه. قمت بلفت انتباه زملائي الآخرين في فريـق الاتصالات، وتأكدت من أن كبار الموظفـين الآخرين بمن فيهم آندي كارد قد اطلع على هذا الخبر أيضاً.

أكـدت مجموعـة الصحفيين على مـتن الطائرة الرئاسيـة المتجهة إلى ولايـة أيوا أن التقديـرات التي أعطاهـا لاري استحوذت على اهتمام كبير من قبـل وسائل الإعلام. لم أبـدِ أي اهتمام بالأسئلة المثارة حول هذا الموضـوع، وعبرت عن ذلك بقولي إن من المبكر طـرح توقعات حول طبيعـة القرار الذي سيتخـذه الرئيس، لكنني فهمـت أن القصة يتم تداولها كخبر مهم في واشنطن. كنت أعرف أن الصحفيين يريدون معرفة ما يريد الرئيس قوله لو كان بإمكانهم ذلك. فكان لا بد لي من أقوم بلفت نظره إلى ذلك.

كان برنامـج بوش قبـل أن يدلي بخطابه في أيوا يتضمن جولة في مصانع سيرز التي كانـت ستشكل الستارة الخلفية لخطابه، ولكن لم يكـن ضمن برنامجه تلقي أي أسئلة. لكننـي علمـت أثناء الرحلة باتجـاه دافينبورت من المدير المتقدم برايـان مونتغمري أن مجمـع الصحافـة سيكون على بعـد عدة أمتار فقـط أثناء الرحلة. فـكان لا بد لي من ألفت نظر الرئيس إلى موضوع القصة وأتأكد من أنه مستعد للإجابة في حال أراد أحد الصحفيين توجيه سؤال إليه.

أوقفـت الرئيـس في إحدى الزوايـا الصغيرة المنعزلة خارج المنطقـة الصناعية. قلت لـه: «سيادة الرئيس، يجب أن أتحـدث إليك». حدق بي بوش بشيء من نفاذ الصبر. كان اهتمامه منصباً على الجولة، وكما دائماً، كان يحب أن يلتزم بالجدول المقرر له.

سألني: «ماذا لديك؟»

قلـت: «سيـدي، لا تتضمن الجولة أي خطـة لتلقي أسئلة هذا الصبـاح. ربما يجب أن تعرف أنهم قد يحاولون أن يسألوك عن تصريحات لاري ليندسي في صحيفة وول ستريت جورنال الصادرة هذا اليوم».

سأل الرئيس: «ما الذي صرح به؟»

أجبته: «قال إن كلفة الحرب على العراق ستبلغ ما بين مائة ومائتي بليون دولار».

بـدا عليه الانزعاج بشكل واضح؛ وأدار رأسـه جانباً وهو يتمتم بضع كلمات. فقد كان متضايقاً جداً، كما توقعت.

سأل الرئيس بشكل محدد وهو يحدق في وجهي: «لماذا قال ذلك؟».

قلت: «لا أعرف؛ فقد كان يتحدث إلى أحد الصحفيين، وأعتقد أن هذا التصريح أفلت من لسانه في معرض جوابه على أحد الأسئلة. وقد سبق لي أن قلت للصحافة إن الوقت مبكر للقيام بأي توقعات حول طبيعة القرار الذي سيتخذه الرئيس».

سأل الرئيس: «هل قام أحد بالتحدث إليه؟».

قلت: «نعم يا سيدي. من المفترض أن آندي قد قام بذلك».

تابع بوش بنبرة صوت أخذت بالارتفاع: «هذا غير مقبول. لا يجوز له التحدث في هذا الأمر. قم بإعلامهم أنني لا أنوي الإجابة على أي من أسئلتهم»؛ وكان يقصد بذلك الصحفيين.

أجبته: «لقد قمت بذلك بالفعل». عند هذه النقطة، خرج بوش من المنطقة المنعزلة ليبدأ جولته. وكنت خلفه مباشرة.

تمكن الرئيس من تجنب أي أسئلة كان يمكن أن تطرح حول تصريحات لاري غير المسؤولة في ذلك الصباح. وبعد انقضاء أربعة أشهر على تلك الحادثة، ترك لاري منصبه؛ فقد «استقال» من عمله في الإدارة كجزء من عملية إعادة تشكيل فريق الرئيس الاقتصادي (ذلك أن تصريحاته حول كلفة الحرب لم تساعده).

لاري الذي يعتبر خبيراً اقتصادياً رفيع المستوى قام بخرق مبدأ أساسي للبيت الأبيض في عهد بوش: وهو أن الرئيس لا يريد أن يتقدم عليه أي شخص. فوظيفته هي أنه هو من يصنع الأخبار، وليس أي شخص آخر - إلا إذا مُنِحَ إذناً بموجب الخطة المرسومة. أما أن يقوم شخص بصنع الأخبار خارج إطار الرسالة فإن ذلك يجعل من الجريمة مضاعفة، كما يجعلها تقترب من الوضع الذي يجعلها من الأخطاء التي لا يمكن غفرانها، خصوصاً في تلك المرحلة الأولى الحاسمة التي كنا قد بدأنا في حملة الترويج الكبيرة لهذه الحرب.

عبر موقعي ناطقاً باسم البيت الأبيض، كنت أقدر الحاجة إلى إيصال رسالة واضحة ومرسومة. ففي عالم تسوده نشاطات الدوائر الإخبارية على مدار الأربع والعشرين ساعة

يومياً، تقوم وسائل الإعلام بإمطار مشاهديها بآلاف من الرسائل التنافسية التي تبثها مترافقة مع صور وكلمات لا تحصى. أما فرص الحصول على فكرة واحدة واضحة ضمن هذا الخليط المتنافر من الرسائل فهي ضئيلة للغاية. ولكن عندما يكون منبر التصريحات الهدارة في البيت الأبيض تحت تصرفك، وكذلك البوق الإعلامي الرئاسي الهائل، فسيكون من الأسهل عليك إطلاق رسالتك، وتغطية أفكارك إعلامياً. مع كل ذلك، فمن الضروري أن تكون الرسالة متناسقة، ويعاد بثها المرة تلو المرة إذا كان لأي مفهوم أن يستقر في أذهان الناس، ويتم استيعابه بالشكل الصحيح. إذا كانت أي إدارة تأمل في التواصل مع الناس بشكل مؤثر، فعليها أن تقوم بتطوير رسائل بسيطة، ومباشرة ترتبط بمصالح الناس، وبمخاوفهم واحتياجاتهم. عليها بعد ذلك إيجاد الوسائل المختلفة لتأهيل هذه الرسائل كي تصبح قابلة للنشر في وسائل الإعلام حيث يتم توجيهها نحو الوجهة المقصودة المتمثلة في الرأي العام؛ وإلا فإن ما يريد الرئيس قوله سوف يصبح هباء منثوراً، ويضيع في الأثير، ومعه، ستضيع فرصة الرئيس في صنع الأحداث، والتأثير في المجتمع، و(الأمل في) إحداث تغيير إيجابي في حياة الناس.

هكذا، وبشكل عام، فهمت واحترمت ليس فقط تأكيد إدارة بوش على الاستمرار في الخط المرسوم المراد للرسالة أن تسلكه، وإنما دعمت هذا التوجه، وساهمت في صنعه ونشره بصفته جزءاً من الوظيفة المنوطة بي. ولكنني اليوم، وأنا أنظر إلى الوراء مستذكراً الحملة التي قمنا بشنها من أجل الترويج للحرب على العراق للشعب الأمريكي - وهي حملة شاركت فيها شخصياً، بالرغم من أن دوري لم يكن محورياً في صنعها - فإنني أرى بوضوح الجانب المظلم من تطبيق أساليب الحملات الحديثة على قضايا ذات ثقل تاريخي خطر. ساعدني استذكار تلك الفترة على بلورة فهمي للحملة الدائمة، بما في ذلك التجاوزات المدمرة التي ترافقها؛ وكذلك استيعاب كيف أن واشنطن، في حال الحرب الحزبية التي تمر بها حالياً، تمارس سياسة الخداع على ضفتي الحزبين. هذه الصورة ليست جميلة أبداً.

الأغلبية الساحقة من قادتنا المنتخبين أناس طيبون؛ إلا أنهم يقعون فريسة للجهود التي لا تنتهي من أجل السيطرة على الرأي العام وإخضاعه لمصالحهم. إنهم يتورطون

في سياسة الخداع من أجل الإبقاء على مصالحهم سواء كان ذلك بقصد أو من دون قصد (أعتقد في حقيقة الأمر، أن هذا الخداع هو في معظم الأحوال غير مقصود، أو لا شعوري). إنه جزء من الدعاية السياسية الهادفة إلى تسويق قضاياهم.

تباشر بعد ذلك وسائل الإعلام عملها. تقوم الصحافة عبر تركيزها على تغطية الصراعات، واللغط، وشخصيات الفائزين والخاسرين، والحملة الدائمة، بتضخيم النقاط التي تشكل محور الحديث حول أحد الحزبين أو كليهما؛ ومن ثم فهي تقوم بنشر الأضاليل، وأنصاف الحقائق، وأحياناً الأكاذيب المفضوحة من أجل احتلال دائرة الضوء، وإيجاد شخص يمكن أن يكون صيداً لها. كما أنها عبر المبالغة في التأكيد على الصراعات واللغط، والإقلال من قيمة القضايا الصعبة والمهمة، والهبوط بها إلى مستوى الأبيض مقابل الأسود، واقتباس ما يناسبها بصورة مجتزأة، فإن وسائل الإعلام تفاقم المشكلة، ومن ثم، يصبح من شبه المستحيل حتى على القادة ذي النوايا الحسنة، تصحيح أو توضيح سوء التفاهم، أو الإيغال في التبسيط الذي يسود النقاش السياسي. وأخيراً، يصبح من الصعب أكثر فأكثر على الرأي العام استيعاب الحقائق الأكثر أهمية وسط هذا الكم من الصراع، واللغط، والسلبية. يعتقد بعض الحزبيين أن مثل هذه الأجواء مناسبة أكثر لأنهم يستطيعون القيام بمناوراتهم بشكل أفضل في بيئة مسيسة تسييساً عالياً كهذه البيئة، ومن ثم تحقيق أهدافهم التي يصبون إليها. لكن القوة التدميرية لهذه الحرب الحزبية التي لا هوادة فيها هي التي كوّنت أفكاري في المرحلة الآتية.

انهمك بوش وأركانه في البيت الأبيض في خريف سنة 2002 في التخطيط لحملة منظمة بعناية لتشكيل مصادر التأييد الشعبي والسيطرة عليها واستغلالها لمصلحتنا. قمنا بالشيء نفسه تقريباً بالنسبة إلى قضايا أخرى - مثل قضيتي خفض الضرائب والتعليم، ونجحنا في ذلك إلى حد بعيد. لكن الحرب ضد العراق كانت شيئاً آخر. فلو نحّينا جانباً التكلفة الإنسانية التي لا يمكن تعويضها، والثمن المادي الباهظ لهذه الحرب، فقد أدى قرار الحرب ضد العراق، والطريقة التي اتبعناها في الترويج لهذه الحرب إلى مزيد من الاستقطاب، وإلى حرب حزبية أكثر ضراوة. أدى غياب الصدق والصراحة في حملتنا للترويج للحرب إلى جملة من ردود الفعل قام بها خصومنا، وتسببت بشكل

أو بآخـر في زيادة الأضاليـل والتعتيم على الحقيقة. كما أدت الموجة الجديدة من الخداع إلى إلقـاء ظلال كثيفة من التعتيم، والتي حجبت عن الناس رؤية الحقائق الثابتة والمهمة والحاسمة التي عليهم استيعابها بغية تجنب مشكلات مشابهة في المستقبل.

ضمن هذه المعمعة، كانت وسائل الإعلام تلعب دوراً مشاركا وتحريضياً. كان تركيزها الرئيس ينصب في اتجاه تغطية الحملات التي تروج للحرب، بدلاً من القيام بطرح أسئلة قاسيـة تبحث عن إجابات عن السبب المنطقـي وراء الترويج لهذه الحرب، أو سبر أغوار الحقائـق وراء هـذه الحرب. كان البيـت الأبيض يعلم أن وسائل الإعـلام الوطنية سوف تقـوم بتغطية شاملة لوجهة نظـره حول الحرب حتى لو كان الدليـل الملموس الداعي إلى شنهـا واهيـاً. كان يمكن أن تُطرَحَ بعض الأسئلة؛ إلا أن البيت الأبيـض كان يتمتع بأكبر منصـة دعائيـة، خصوصاً عندما كان الأمر يتعلق بمسألـة تستحوذ على كثير من الإثارة واللغـط كالحـرب. يميل الرأي العـام إلى تصديق ما يسمعه من البيـت الأبيض، أو ترك فسحـة له كي يثبت حسن نواياه، إلى أن تثبت وسائل الإعلام المتربصة أن هذه المعلومات غير موثوقة.

ولكـن في هذه الحـال، سوف لن تقوم وسائـل الإعلام بأداء دور كلـب الحراسة، ولن تظهـر سوى نـذر القليل من التركيز على الحقيقة وتوخي الدقـة؛ بل سيكون همها الأكبر التحقـق من نجاح حملة الترويج للحرب. هل ربح الرئيس الجدل الدائر أم خسره؟ كيف كان رد الديمقراطيـين؟ ما طبيعـة العوامل الانتخابية للحملة؟ مـاذا بينت استطلاعات الـرأي؟ أما الحقيقـة – بشأن الطبيعة الحقيقية للتهديد الـذي كان صدام حسين يمثله، والطريقـة المثلى لمجابهة هذا التهديد، والمخاطر المحتملة الناجمة عن الصراع العسكري – فلـم يكـن أحد يكترث لها كثيراً؛ وقد استمر ذلك علـى الأقل، إلى ما بعد حصول بوش على الدعم الضروري للبـدء بشن الحرب، لأن الدعم الشعبي لقواتنا المسلحة حينها بدأ يفيق على الأذى المحتمل الذي يمكن أن تتعرض قواتنا له.

كانـت هناك استثنـاءات. فقد طرحت مجموعـة من الصحفيين أسئلـة قاسية حول منطـق الإدارة الرئيـس الذي دفعهـا لشن الحرب، وركزت هـذه الأسئلة في مجملها على

ضرورة الحرب، وكذلـك على الحقائق المرتبطة بها. لكن هؤلاء لم يكن بمقدورهم تغيير مسار تركيز وسائل الإعلام الرئيس في الوقت الذي كانت الحملة من أجل الترويج للحرب في أوجها، أو إبطاء زخم مسيرة بوش المصمم على المضي في سعيه نحو الحرب.

في المرحلة التي سبقت الحرب، كنت أشغل منصب نائب السكرتير الصحفي في البيت الأبيض. لم يكن دوري يتركز حول موضوع العراق، أو حتى بذل أي جهد من أجل الترويج لمثـل هذه الحرب. قضيت جل وقتي في التركيز على مسائل لا علاقة لها بموضوع العراق. لكننـي كنـت أحياناً أحل مـكان آري فليشر، ومن ثم كنت أشـارك في حملة الترويج لشن الحرب، أو القيام بتجييش الرأي العام، والتحكم بميوله بطريقة تخدم مصالحنا.

كنـت، مثلي مثل الكثير من الأمريكيين، غـير متأكد من ضرورة شن الحرب، والنزوع نحـو مبـدأ الضربـة الوقائية الـذي كان يستخدم من أجـل دفعنا للقيـام بالحرب. كنت أتساءل عن السبب الذي يحدونا للتحرك بسرعة نحو المواجهة. لكنني كنت أثق بالرئيس وصناع السياسة في فريق الأمن القومي التابع له. لقد حازوا على ما يشبه الوسام العالمي لقيامهـم برد سريع ومدروس على هجمات الحادي عشر من أيلول، والمتمثل خصوصاً في الحـرب على أفغانستان. الآن، كان معظمهم يعتقد أن العراق يمثل تهديداً جدياً، وهو ما لقـب دوراً كبـيراً في رغبتي بدعم قـرار مواجهة صدام حسين عسكريـاً، حتى لو لم يمثل ذلـك الموقف بالضرورة تماهياً مطلقاً مع هذا القـرار. فهم في واقع الأمر يمتلكون جميع مفاتيح المعلومات الاستخباراتية والشخصية عن صدام حسين ونظام حكمه. أما أنا، فلم تكن لدي مثل هذه المعلومات. وهكذا، ومثل معظم الأمريكيين، كنت أميل إلى حسن الظن بهم، إلى أن يثبتوا أنهم غير جديرين بحسن ظننا بهم.

لم تبـدأ حملـة الترويج لشـن الحرب بشـكل جـدي إلا في خريف سنـة 2002. ولكن الرئيـس، كمـا علمت فيما بعد، كان قـد اتخذ قراره بمواجهة النظـام العراقي قبل ذلك بعـدة أشهر. رأى كل من تشيني، ورمسفيلد، وولفويتز أن هجمات الحادي عشر من أيلول

كانت فرصة لملاحقة صدام حسين، وضرب نظامه، ووضع حد له كتهديد لأمريكة، وجعل منطقة الشرق الأوسط أكثر أمناً. أعطى بوش موافقته على ذلك.

كما ذكر بوش لبوب وودوارد في مقابلة أجراها معه في أواخر سنة 2003، فقد شعر أن على الولايات المتحدة أن تهتم بموضوع أفغانستان أولاً - أي إسقاط نظام طالبان، والسيطرة على الملاذ الآمن للقاعدة. كانت مقاربة بوش تعتمد منطق «الأولويات»؛ لأن العراق لم يغب أبداً عن بال بوش، أو فريق مجلس الأمن القومي التابع له كجزءٍ من نظرته الشمولية حول الحرب على الإرهاب.

أما متى، ولماذا اتخذ بوش قراره لشن الحرب على العراق فإنهما أهم سؤالين يجب البحث عن إجابة عليهما كي نفهم الطريقة التي استخدمتها إدارته للترويج لفكرة الحرب بين أفراد الشعب الأمريكي.

كانت السياسة الخارجية الأمريكية تنظر إلى صدام حسين نظرة يشوبها الازدراء. فقد رأوا فيه قوة مزعزعة للاستقرار في الشرق الأوسط، وهي منطقة تحتوي على احتياطات نفطية هائلة تمثل مصالح أمنية وطنية للولايات المتحدة. اتخذ فريق بوش إجراءات ضد النظام العراقي أشد قسوة من الإجراءات المتخذة في عهد إدارة كلينتون، حتى قبل وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول. ولهذا السبب كانت الإدارة تدفع باتجاه فرض عقوبات ذكية على النظام العراقي عبر الأمم المتحدة، والتحرك باتجاه القيام بضربات عسكرية موجعة عند الضرورة كي لا يخرج صدام عن الخط المرسوم له، وربما لإضعاف نظامه بشكل قاتل.

ولكن بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، أبدى بوش وفريقه اهتماماً أكبر بموضوع العراق. فقد وصلوا إلى استنتاج مفاده أن الحرب على الإرهاب هي حرب شاملة يجب شنها على عدة جبهات عسكرية وغير عسكرية - بما في ذلك من الناحية الضمنية، غزو العراق. ولهذا السبب تنحى بوش برمسفيلد جانباً، وتحدث معه على انفراد في أواخر شهر تشرين الثاني، نوفمبر سنة 2001، كما أكد ذلك الكاتب وودوارد في حديثه

مـع الرئيس، ووجهه إلى ضرورة تحديث خطط البنتاغون الحربية حول العراق. حرص الرئيـس على التأكد من أن تبقى هذه المبادرة طـي الكتمان، وأن يطلع عليها فقط عدد قليـل جـداً من النـاس الموثوقين الذين لا يمكـن أن يفشوا هذه الخطـة. لكن هذا يعني في واقـع الأمـر أن بوش اتخذ فعلاً قـراره بشن الحـرب - حتى لو أقنـع نفسه أن هذه الحـرب يمكن تجنبها. كان مقتنعاً في قرارة نفسه أن القرار بشأن موضوع العراق، كما في الموضوعـات الأخـرى، لن يكون نهائيـاً وحاسماً إلا عندما يعطي أمـره النهائي بشن الحـرب. ولكنني كما علمـت لاحقاً، وبعد أن استعرضـت في ذاكرتي مجريات ما حدث حينها، كانت الحرب واقعة لا محالة إذا أخذنا بعين الاعتبار التحضيرات التي كان يعد لها الرئيس منذ البداية.

دائمـاً ما كان الرئيس بوش يُنظَرُ إليـه كقائد بالفطرة، وليس كقائد ذي فكرمنهجي. فهو ليس الشخص الذي يتأمل بعمق في الخيارات السياسية المتاحة - بما في ذلك خوض مناقشـات مستفيضـة حولها - قبل اتخاذ القرار الذي يراه مناسبـاً. بدلاً من ذلك، فإن خياراتـه مبنية على مشاعره وعلـى معتقداته التي يؤمن بها إيمانـاً عميقاً. هكذا تكونت الفكرة بشأن العراق.

يؤمـن بوش إيمانـاً عميقاً بأن جميع الشعـوب لها حق إلهي في العيش بحرية. لم أره في حياتـي يتحـدث عن موضوع آخر بمثـل هذه الحرارة، في العلـن وفي السر. يُعرَفُ عنه اقتناعـه وبشكل لا يرقى إليه الشـك، مقته الشديد للطواغيت أمثـال صدام حسين، كما يعـرف عنه قناعته الراسخة بأن الطغاة لن يتخلوا أبـداً عن رغبتهم بامتلاك أشد أنواع الأسلحـة فتكاً في العالم. كان صـدام بالنسبة لبوش، شخصاً لفظه العالم بسبب جرائمه ضـد الإنسانية. كان هذا سببـاً كافياً ليضع العراق على شاشـة رادار الرئيس منذ بداية عهده في البيت الأبيض.

يؤمن بوش أيضاً أن من واجب أمريكة استعمال قوتها لقيادة العالم بأسره إلى مستقبل أفضـل، وأكثر أمناً. كما يؤمن أن القائد يجب أن يفكر ويتحرك بشجاعة من أجل تحقيق مُثُلِـه العليـا. ولهذا السبب كان بوش يؤمن أن من المهم بالنسبة إلى مستشاريه أن يفكروا

بالقيـام بأفعـال محددة ذات أهـداف إستراتيجية أكبر - تتيح لهـم أن يكونوا جزءاً من الصورة الشاملة التي توضح ما تبغي هذه الإدارة تحقيقه.

أخـيراً، كان بوش متخوفاً بشـكل حقيقي، من احتمـال أن يقـوم الإرهابيون بضرب أمريكة من جديد. وقد زادت الهجمات بالجمرة الخبيثة من حدة هذه المخاوف. كان بوش يعنـي ما يقـول عندما أكد أنه لن ينسى أبداً درس الحـادي عشر من أيلول. كان مصمماً على التحرك قبل أن تتحول مخاطر الهجوم من احتمالٍ إلى واقع.

كانت نتيجة تَجَمّعِ هذه المعتقدات كلها في بيئة ما بعد الحادي عشر من أيلول قد تجلت في أهـم قرار اتخذه بوش خلال مدة رئاسته. فقد زال بسرعةٍ الخطُ الفاصلُ بين الرغبة الموجـودة سلفاً عنـد أعضاء فريق مجلس الأمن القومي في إسقـاط صدام، وبين التأكيد الجديد على ضرورة التحرك ضد تهديدات حقيقية ومتزايدة قبل استفحالها.

هل قامـت مستشارة بوش لشؤون الأمن القومي كونـدي رايس بدراسة تقويمية شاملة لأسلـوب بوش الصعـب المراس في القيـادة، أو بتقديـر لأهمية الحاجـة إلى ضبط إيقاع معتقداتـه الجامحة، وإبقائها تحت السيطرة؟ سنترك الحكم على ذلك للمؤرخين؛ ولكن، بصفة عامة، كان مستشارو بوش السياسيين للشؤون الخارجية مطية لأفكاره، لم يفعلوا إلا أقـل القليـل لكي يشككوا في جدواها، أو يدفعوه إلى إعادة التفكير بما فيه الكفاية كي يعيد النظـر في العواقـب المحتملة قبل التحرك إلى الأمام. وفي اللحظـة التي يقرر بوش إطلاق مشروع ووضعه موضع التنفيذ، كان من النادر أن تطرح تساؤلات حول جدوى أو مصداقية هـذا المشـروع. هذا ما كان بوش يتوقعه، وهو ما كان يتأكد من أن كبار مستشاريه يعرفونه حق المعرفة. كانت إستراتيجية تنفيذ إحدى السياسات مفتوحة للمناقشة والمداولات، ولكن سياسة ليّ الذراع كانت غير مسموح بها، كما لم يكن من المسموح الوصول إلى استنتاجات مخالفة حول السياسة المتبعة بعد أن يكون قد تم إقرارها ووضعها حيز التنفيذ.

هـذا كان بالتأكيد ما حصل بشأن العـراق. كان بوش مستعداً لتغيير النظام الحاكم، وكان هـذا يعنـي بكل المعايير، نشوب حرب. وكان السـؤال ليس حول ما إذا كانت الحرب ستقع؛ بل، بكل بساطة، متى وكيف.

بالرغـم من أنني لم أنتبه إلى ذلك حينما أطلقنا حملتنا للترويج للحرب، فإن ما دفع ببوش نحو المواجهـة العسكرية أكثر من أي شـيء آخر، كانت الرؤيـة الطموحة والمثالية التـي سادت البـلاد في المرحلة التي أعقبـت هجمات الحادي عشر من أيلـول، المتضمنة تغيـير بنيـة الشرق الأوسط عبر نشر الحريـة فيه. كانت هذه الرؤيـة متجذرة في فلسفة الديمقراطيـة بالإكراه، ومبنية على الاعتقاد بأن العـراق جاهز للتحول من الديكتاتورية إلى رمز من رموز الحرية وذلك عن طريق استخدام القوة، ومستندة إلى ما يشبه اليقين بأن هذا التغيير ممكن التحقيق بأبخس الأثمان. كان الانطباع عن العراقيين بأنهم أناس عصريون، يتطلعون إلى الأمام، ويتوقون للحرية؛ إلا أنهم غير قادرين على تحقيقها تحت ظـل نظام صـدام حسين الديكتاتوري الوحشي. كان الرئيـس وفريق القيادة العامل لديه يؤمنـون أن النصـر في العـراق يمكن أن يتم بشـكل حاسم وسريـع، وأن الشعب العراقي سوف يرحب بالحرية ويعانقها.

اعتقد الرئيس ومستشاروه أنه بمجرد أن تنطلق الديمقراطية في العراق، فإنها ستكون نموذجاً يحتذى بالنسبة للمصلحين الآخرين التواقين إلى الحرية في الشرق الأوسط. كما اعتقدوا أن التأثير الإيجابي لعامل الدومينو هذا، يمكن أن يحدث تأثيراً في إيران المجاورة التـي تضم مثل العراق نخبة كبيرة من المواطنـين المتعلمين الذين يتطلعون إلى المستقبل، خصوصـاً من الجيل الشـاب. كانت أفغانستـان تقترب حينها من تخـوم الديمقراطية؛ وهـي جارة لإيران وتقع على حدودها من طرف، كمـا العراق الذي يقع في الطرف الآخر مـن حدودهـا. سوف يكون العراق الحر مصـدر إلهام وتشجيـع للإيرانيين الإصلاحيين للانتفاض ضـد حكومتهم وتغييرها؛ كمـا أن العراق الحر وإيران الحـرة سوف يزيلان مصدريـن رئيسين من مصـادر التهديد للسـلام والاستقرار في قلب الشـرق الأوسط – كطرفـين في «محـور الشر» كما أكد بوش في خطابه حول حال الاتحـاد في كانون الثاني، ينايـر، سنة 2002. سيـؤدي ذلك من ثم إلى خفض التوتر الدولي بشكل كبير، ويعزز قوة واحـدة من المصالح الأمنية الوطنية الرئيسة الأمريكية عبر ضمان استقرار طويل الأجل لوضـع الاحتياط النفطـي الهائل الموجود في منطقة الشرق الأوسـط. وكما يحب الرئيس بوش أن يردد دائماً القول إن الدول الحرة هي دول مسالمة لا تتحارب فيما بينها. وهكذا،

فـإن استقدام الحرية إلى الشـرق الأوسط سيكون بمنزلة خطـوة عظيمة نحو بناء عالم أكثر سلاماً في القرن الحادي والعشرين.

كان الرئيس يؤمن دائماً بضرورة نشر الحرية والديمقراطية في كل أرجاء العالم، بما في ذلـك منطقـة الشرق الأوسط؛ كما عبر عن التزامه بهـذه الرؤية في وقت سابق وذلك في كلمـة ألقاهـا في وارسـو في حزيران، يونيو سنة 2001. في ذلـك الحين، لم يكن هناك أي تفكير جدي بشأن القيام بغزو عسكري على نطاق واسع من أجل فرض هذا النوع من التفكير بالإكراه. إلا أن أحداث الحادي عشر من أيلول أدت به إلى التركيز على وضع هذه الرؤيـة موضـع التطبيق على العراق. وكان اعتقاد بوش بضـرورة نشر الحرية على نطاق العـالم أحد الأسبـاب التي حدت به إلى تبني قرار حول النـزاع الإسرائيلي- الفلسطيني يتم بموجبه إنشاء دولة فلسطينية حرة - وهي خطوة أخرى تساهم إيجابياً في بناء شرق أوسط أكثر حرية وأكثر استقراراً، تتضاءل فيه إلى حد بعيد فرص تصدير الإرهاب. وقد أصبح العراق الحر يشكل بالنسبة لبوش أولوية بعد الحادي عشر من أيلول لأنه كان يشكل مشروعاً أكثر قابلية للتحقيق من إيجاد حل للصراع الإسرائيلي- الفلسطيني.

أعـود بذاكرتـي إلى حديـث دار بيني وبين الرئيـس في المكتب البيضـاوي بعد سنتين مـن ذلـك عندما كنت أشغل منصب السكرتير الصحفـي. في ذلك الوقت، كانت القصة المتداولـة في وسائل الإعـلام تتلخص في أن نتيجة الحرب في العـراق ستحدد مسار إرثه أكـثر من أي شيء آخـر. سألت بوش عن هذا الموضوع. فأجـاب بسرعة وحزم: «كلا. إن الحـرب على الإرهاب هي التي سوف تحدد إرثي، كما أن موقع العراق في هذه الحرب هو مـا سيحدد إرثي». كانت رؤيتـه العظيمة حول شرق أوسط حر تعطـي أملاً وتوفر فرصة لسكان منطقة لم تحظَ بأيٍّ منهما إلا بالكاد. هذه الحرب بدورها سوف تقضي على قدرة الإرهابيـين من الإسلاميين المتطرفين علـى التحريض على الكراهية والعنف، وعلى جمع متطوعـين من طبقات اجتماعية متدنية وفقيرة وغير متعلمـة من أبناء هذه المنطقة. كل ذلك كان يعني بالنسبة له تحقيق النصر في الحرب على الإرهاب، وهو ما سيوفر الفرصة لبوش لتبوء موقع راسخ في التاريخ.

كان يشـارك الرئيسَ حلمَهُ في قيام شرق أوسط ديمقراطي عـددٌ من كبار المسؤولين في إدارتـه مثل نائب وزير الدفاع بول وولفويتز ومؤيديه من المفكرين غير المحافظين. أما بالنسبة لديك تشيني ودونالد رمسفيلد فقد كان ينتابني شعور بأن اهتمامهما الرئيس كان ينصب على ضرورة إزالة التهديد الذي يتعرض له السلم الإقليمي والدولي، وعلى تحقيق أمن اقتصادي أكبر؛ ولم يكن نابعاً من الإيمان برؤية بوش لعالم تسوده الحرية التي سوف تؤدي حكماً إلى التغيير. لكنهما لم يبديا أي اعتراض على تلك الرؤية الديمقراطية، طالما أنهـا ترسخ التزام الرئيس بتنظيم حملة عسكرية كانا يؤيـدان شنها لأسباب أخرى؛ لذا فقد كانا سعيدين بالانضمام إلى هذا الفريق.

ولكـن الرئيـس وأعضاء آخريـن في إدارته لم يولوا هذه الرؤيـة التغييرية للمنطقة في مرحلـة التعبئة النفسية لهذه الحرب الكثير مـن الاهتمام. فقد ركزوا بدلاً من ذلك على التهديـد الذي تمثله أسلحة الدمار الشامل، وعلى العلاقة المحتملة بين العراق والإرهاب. وكمـا صرح بـول وولفويتز لمجلـة Vanity Fair في شهر أيار، مايو سنـة 2003 فإن بوش وفريـق الأمن القومي في إدارته «استقروا حول موضـوع يتفق عليه الجميع، ويتمثل في أن أسلحة الدمار الشامل هي السبب الجوهري في شن هذه الحرب». وتابع وولفويتز قائلاً:

كانـت هناك دائماً ثلاثة مخاطـر يمثلها العراق. تتمحور الأولى حـول أسلحة الدمار الشامـل، والثانيـة حول دعم الإرهاب؛ أمـا الثالثة فتتمثل بالمعاملـة الوحشية التي يعاني منهـا مواطنـو العراق من قبـل النظام. ... أظـن في الحقيقة أن بإمكانـك إضافة خطر رابع يتجسد في العلاقة الوثيقة بين الأولى والثانية. فالمخاطرة الثالثة تشكل في حد ذاتها كمـا أظن أنني ذكرت سابقاً، سبباً لمـد يد المساعدة إلى العراقيين، ولكنه ليس إلى درجة تعريض حياة أبنائنا الأمريكيين إلى الخطر، وبالتأكيد ليس إلى المدى الذي ذهبنا إليه.

كمـا اعترف أن «ربط العراق بالإرهاب كان أكثر الموضوعات التي جرت حولها الكثير من الخلافات داخل الإدارة».

وهكـذا فقد كان القرار القاضي بالتقليل من أهمية الرؤية الديمقراطية لبوش كدافع لشـن الحرب بالأساس خياراً له علاقة بترويج الحرب. لم أتأكد إلا بعد مرور وقت طويل

على استلامي مهمة السكرتير الصحفي، من أن الحلم حول شرق أوسط ديمقراطي كان في واقع الأمر أكثر الدوافع قوة عند الرئيس بوش في قراره شن الحرب. كنت أسمع الرئيس يكرر مـرة تلو الأخرى، وبكثير من الحماس، الحديث عن فضائل الحرية أثناء محادثاته الخاصة مع زعماء العالم، وكذلك خلال أحاديث عابرة كنا نتبادلها بشكل غير رسمي.

يتوق جميع الرؤساء إلى بلوغ العَظَمَة؛ إلا أن قليلاً من هؤلاء يبلغها فعلاً. وكما سمعت بوش يقـول ذات مرة إن الرئيس في زمن الحرب هو الذي يملـك فرصة في بلوغ العَظَمة، ويعـود ذلك جزئيـاً إلى أن الاضطرابات ذات الأبعاد التاريخية توفر فرصة لإحداث تغير تحولي؛ وهو التغير الذي كان بوش يحلم في تحقيقه. رأى بوش في العراق فرصته السانحة لصنـع إرث مـن العظمة. كان بوش يعتقد، وقد أسكرتـه قوة أمريكة التـي لا تقاوم، أن التحـول الناجح في العراق سوف يمثل المفصل الرئيس لتحقيـق حلمه بشأن شرقٍ أوسطٍ ينعم بالحرية.

لكـن مشكلـةً برزت هنا؛ وهذه المشكلـة أصبحت بالنسبة لي في غايـة الوضوح عندما استحضرتها من ذاكرتي – فقد نشأت هوة بين الهدف الأسمى والأغلى على قلب الرئيس مـن جهة، وبين التعليـل العلني لشن هذه الحرب من جهة أخـرى. لقد كان الرئيس بوش ومستشاروه يعلمون أن الشعب الأمريكي لن يقدم بالتأكيد الدعم لحرب تُشَنّ بشكل رئيس من أجل تحقيق هدف طَموحٍ يتمثل بإحداث تغيير في الشرق الأوسط.

كان هناك دائماً نزوع قوي نحو الانعزالية في أمريكة، وكانت هناك مقاومة بين صفوف الأمريكيـين لفكـرة إرسـال وحدات عسكريـة إلى ميادين القتال، إلا في حـال الضرورة القصـوى. يفهـم معظـم المواطنـين الأمريكيين اليـوم أن وضعنـا بصفتنا قـوةً عظمى، والـذي تحقق بفضـل ثرواتنا العظيمـة، ونفوذنا العالمـي، وقوتنا العسكريـة، ودورنا أننا أعظـم ديمقراطيـة في العالم، يفرض على الولايات المتحدة أن تلعـب دوراً قيادياً مسؤولاً في العـالم. ولكـن، ومن المنطلق نفسه، نحـن أمة محبة للسلام، وليسـت لدينا طموحات للقيـام بغـزو العـالم، أو في أن نصبـح قوة إمبرياليـة. بدلاً من ذلك، نتـوق إلى الحفاظ على مصالحنا في الداخل الأمريكي، وتبادل المصالح التجارية والتنافس بشكل سلمي مع الأمم الأخـرى، واستعمال قوتنـا العسكرية ليس من أجل «إصلاح» الأمم الأخرى، بل من

أجـل حماية مصالحنـا ومصالـح أقرب حلفائنا إلينا عندمـا تتعرض هذه المصالح إلى تهديد مباشر.

كانـت فكرة تغيير الشـرق الأوسط بالقـوة تتعارض مع مبدأ التواضـع الموعود، وكان مـن الصعوبـة بمكان على بوش وأركان إدارته القيـام بالترويج لهذه الفكـرة بين أفراد الشعـب الأمريكي. كانـت تلك ستؤدي إلى إثارة جميع أنـواع النقاشات التي لن يكون من السهـل الفـوز بها - والتي حـازت على كمٍ أكبر من الاهتمـام في أعقاب شن الحرب على العـراق. هـل كان من الواقعي التفكير بتحويل بلد مثل العـراق يحكمه نظام متخندق من الدكتاتورية إلى الديمقراطية عن طريق استخدام القوة العسكرية بشكل رئيس؟ هل كان شعب العراق ومؤسساته المدنية جاهزين بشكل كامل لدعم فكرة قيامهم بحكم أنفسهم؟ مـا أشكال التدخـل والتواجد العسكري المطلوبـين للمحافظة على الاستقـرار أثناء قيام اضطرابـات حكوميـة أو شعبية؟ ما الدور الـذي يتوقع أن تلعبه الأصوليـة الإسلامية في النظـام الجديد؟ ماذا عن التوترات العرقية والدينيـة المزمنة المتوضعة تحت السطح في هذا البلد الذي تفرض فيه رقابة محكمة؟ وكيف يمكن لنا أن نتأكد أن الحكومة الجديدة المنتخبـة ديمقراطياً في العراق ستكون موالية للأمريكيـين، وأنها مستعدة للعيش بسلام مع جارتها (وحليفة أمريكة) إسرائيل؟ لم يكن من السهل أبداً توجيه تلك الأسئلة، وذلك لأنها تتطلب عناية واهتماماً، وتخطيطاً دقيقاً.

لـذا، وبدلاً من فتح باب صندوق الشـرور هذا على مصراعيه، اختارت الإدارة طريقاً آخـر - فقـد آثرت عدم استخـدام سياسة الخداع المكشوف؛ بل اختـارت تعمية الحقيقة عـبر إخفاء السبب الحقيقـي الذي دعاها لاختيار طريق الحـرب، والتأكيد على اختلاق حججٍ أقـل شأناً كان يمكن أن تتم معالجتها بطرق أخرى (مثل استخدام وسائل الضغط الدبلوماسيـة المكثفة)؛ وذلك في محاولـة منها جعل التهديد الناجم عـن أسلحة الدمار الشامـل، وعلاقة العراق بالإرهاب يظهران كواقـع شبه مؤكد، وأقل إثارة للتساؤلات مما كانتـا عليه في الواقـع، وتجاهل لبعض التحذيـرات الحاسمة من قبـل أجهزة المخابرات وعدم الاكتراث بها، والتقليل من شأن الأدلة التي تشير إلى الاتجاه المعاكس مستخدمة في

ذلك أسلوب التلميح والإشارات الضمنية لتشجيع الأمريكيين على تصديق ما تقدمه لهم من معلومات غير واضحة وربما كانت مزيفة (مثل امتلاك صدام حسين لبرنامج أسلحة نووية نشيط)، أو معلومات أخرى مكررة بشكل سمج، أو خاطئة تماماً (مثل الإشارة إلى أن صدام حسين كانت له علاقة عملية بالقاعدة).

عندما تقرر المشاركة في حملة انتخابية، فإنك تهدف إلى استخدام أقوى حججك. وهذا يشبه إلى حد ما، الإستراتيجية التي يتبعها المحامي في قاعة المحكمة. فهو لا يكترث بمسألة الاعتراف بنقاط الضعف في القضية التي يدافع عنها، أو الحجج المضادة الصحيحة التي يثيرها خصومه ضد حججه؛ فهو يترك هذه المهمة للمحامين الذين يمثلون الطرف الآخر. يركز بدلاً من ذلك بشكل مطلق على أكثر حججه إقناعاً ولو أدى ذلك إلى تقديم صورة من جانب واحد للقضية. هذه هي وظيفته. أما مهمة البحث عن الحقيقة المطلقة فتترك في عهدة أشخاص آخرين - القاضي وهيئة المحلفين.

تلك كانت الروحية التي قاربت فيها إدارة بوش الحملة للترويج للحرب. كان الهدف هو الفوز بالمناقشات الدائرة حول هذه القضية، ومن ثم دفع الكونغرس والشعب الأمريكي إلى تأييد قرار الإدارة بمواجهة صدام. ولتحقيق هذا الهدف، فقد تراجعت أهمية الصدق والصراحة حول الحرب المحتملة - أهدافها الأكثر شمولية، وكلفتها المحتملة، والمخاطر المتوقعة الناجمة عنها - إلى المرتبة الثانية.

في معرض تأسيسه لقاعدة يوسع عبرها دائرة الحرب على الإرهاب خارج حدود أفغانستان، ويفرض الديمقراطية في العراق، قام بوش بتحديد الخطوط العريضة لمبدأ جديد يتعلق بمفهوم الحرب الوقائية وذلك ضمن كلمة ألقاها في إحدى حفلات التخرج في مدينة ويست بوينت، أوائل شهر حزيران، يونيو. كنت أرافقه في تلك الرحلة. وكان من ضمن ما قاله بوش:

تكمن أشد مظاهر الخطر على الحرية في التقاطع الخطر بين الراديكالية وبين التكنولوجيا. عندما تنتشر الأسلحة الكيميائية، والبيولوجية، والنووية؛ إضافة إلى

تكنولوجيا الصواريخ الباليستية - عندما يحدث هذا، يمكن حتى للدول الضعيفة أو المجموعات الصغيرة أن تضع يدها على مصادر قوة كارثية تستطيع بواسطتها ضرب الأمم العظيمة. ولقد عبر أعداؤنا عن هذه النوايا، وتم ضبطهم وهم يحاولون اقتناء تلك الأسلحة الرهيبة. هم يسعون إلى امتلاك القدرة التي تمكنهم من ابتزازنا، أو إلحاق الأذى بنا، أو بأصدقائنا - ولكننا سنقف في وجوههم بكل ما نملك من قوة.

اعتمدت أمريكا في سياستها الدفاعية، ولمدة طويلة من القرن الماضي على مبدأيّ الردع والاحتواء. وما تزال هذه الاستراتيجيات موضع التطبيق في بعض الحالات. لكن التهديدات الجديدة يجب مواجهتها أيضاً بأفكار جديدة. فقوة الردع - أي التهديد بالقيام برد فعل هائل ضد الدول الأخرى - لا قيمة لها أمام الشبكات الإرهابية المتخفية التي لا تدافع عن دول أو شعوب. لم تعد سياسة الاحتواء ذات جدوى عندما يكون باستطاعة حكام ديكتاتوريين غير متزنين تثبيت هذه الأسلحة على الصواريخ، أو إيصالها بشكل سري إلى حلفائهم الإرهابيين.

لا يمكننا الدفاع عن أمريكا أو عن أصدقائنا عبر التمنيات. كما أننا لا نستطيع الوثوق بوعود الطغاة الذين يوقعون على معاهدات حظر انتشار الأسلحة النووية بيد، ويخرقون هذه المعاهدات باليد الأخرى. ولو آثرنا الانتظار إلى أن تتحول هذه التهديدات إلى واقع ملموس، فإن هذا يعني أن الوقت قد فات.

الدفاع عن الوطن، والدفاعات الصاروخية هي جزء من خطة أمنية أكثر قوة، وتشكل أولوية جوهرية بالنسبة لأمريكا. مع ذلك، فمن غير الممكن كسب الحرب على الإرهاب بالوسائل الدفاعية. يجب أن نأخذ المعركة إلى أرض العدو، كي نخرب مخططاته، ونواجه أسوأ تهديداته قبل أن تظهر على السطح. الممر الوحيد الذي سيؤدي بنا إلى الأمان في العالم الذي ولجناه، هو الإمساك بزمام المبادرة. وهذه الأمة سوف تتحرك.

وصفت صحيفة نيويورك تايمز هذا الخطاب بأنه «خطاب شديد اللهجة يبدو وكأنه يهدف إلى إعداد الأمريكيين لحرب محتملة ضد العراق». وبالفعل، هذا ما كان يهدف

إليـه. وفي الوقـت الذي كنا قـد بدأنا نبحث عن مصادر للحصول علـى دعم الرأي العام واستمالتـه لصالحنا كي نمـرر قانونيْ خفض الضرائب وإصـلاح التعليم في الكونغرس، ونقوم فيما بعد بالشيء نفسه بالنسبة إلى إصلاح نظام الضمان الاجتماعي، فقد وجدنا أنفسنا نستعد للترويج لمواجهة عسكرية في العراق.

أضحى مبدأ الضربة الوقائية حجر الزاوية في إستراتيجية الأمن القومي التي يتبناها البيـت الأبيض، والتي كان سيتـم الإعلان عنها بين منتصف شهـر أيلول وآخره من تلك السنة. يرفع بوش الآن من احتمالات اللجوء إلى استخدام الضربات الوقائية، وهي خطوة كان مـن الممكـن جداً اعتبارها راديكالية لو قام بها قبل هجمات الحادي عشر من أيلول. أوضـح هذا المبـدأ بشكل لا يرقى إليه الشك أنه بينما تتحرك الولايات المتحدة دائماً وفق خطـوات مدروسة، وتزن عواقب أي فعل قبل الإقدام عليه، إلا أنها لن تتردد في استخدام القـوة عنـد الاقتضاء كإجراء وقائي ليـس فقط ضد تهديد «وشيك"، بـل ضد أي تهديد «خطير ومتزايد» إذا دعت الحاجة إلى ذلك. كان هذا المبدأ يستند إلى فرضية أن انتظار التهديـد كي يصبح وشيـكاً قبل القيام بأي فعل تجاهه يعنـي أن استجابتنا لهذا التهديد ستكـون متأخرة جداً. هذا المبدأ الجديد الـذي أضحى جزءاً من الإستراتيجية الجديدة لأمننـا القومي كان يهدف جزئياً وبشكل واضـح إلى تمهيد الطريق لإزاحة صدام حسين عن الحكم بالقوة.

في صيـف سنة 2002، وضع مساعـدو بوش الخطوط العريضـة لإستراتيجيةٍ تهدف إلى تنظيم دقيق للحملة القادمة التي تهدف إلى الترويج للحرب. لا أذكر أن أحداً اعترض علـى هذه الخطة؛ فقد حصلت على دعم كامل من جميع أفراد فريق السياسة الخارجية في إدارة بوش وكبار مستشاريه. في حقبة الحملات الدائمة، كان الأمر يتعلق دائماً بحشد الرأي العام لصالح الرئيس.

بطبيعـة الحـال، لم أنظر إلى المسألـة من هذه الزاويـة حينها. فقد كنـت أنظر إليها كغالبيةٍ، إن لم أقل جميعِ من كانت لهم علاقة بالموضوع، على أنها مجرد واحدة من الطرق المتبعـة للدفع بجـدول أعمالنا العام باتجـاه وضعه موضع التطبيـق – لأنها ببساطة تعبر

عـن الطريقة التي تمارس فيها واشنطن الحكم. لم أكلـف نفسي عناء التوقف للتفكير في عواقـب هذه الحملة التي هدفنا مـن خلالها إلى التحكم بمفاتيـح النقاشات العامة حول هذا الموضوع؛ ذلك أنه عندما تكون في خضم العمل اليومي المكثف في البيت الأبيض، فإنك تركـز فقط على الفـوز بالمعارك اليومية؛ وهو ما يجعل من محاولتك التراجع، والنظر إلى المسألة برمتها عبر منظور واضح يساعدك في استيعاب المعنى الأشمل لكل ما كان يحدث، أمراً في غاية الصعوبة.

في كتـاب «الحملة الدائمة: Permanent Campaign»، يتحدث المؤلف هيو هيكلو عن خطورة مثل هذه المقاربة:

يمكن أن يكون الأمن والازدهار خادعين، لكن الضغوط الناجمة عن زمن الحرب تقطر في عمـق كل منهمـا الأخطار الناجمـة عن الدمج بين الحمـلات السياسية وبين ممارسة الحكـم. فالحمـلات الدعائية التـي تمولها الحكومـة تتزايد في ظل الحـرب الشاملة في العصـر الحديث. لكن من الكارثـي الخلط بين الحملات الدعائية وبين حقائق الحملات التي تجيّر لشن الحروب. إن الإخفاق في ممارسة الحكم على أساس حقائق الأمور بأفضل تجلياتهـا هو المعبر الأكيـد باتجاه الكارثة التي لا مخرج منهـا للحاكم والمحكوم على حد سـواء. يشـير التاريخ إلى أن السبب الرئيس في كـون الديمقراطيات الغربية كانت تحكم بشـكل أفضل خلال الحرب العالمية الثانية من طريقة الحكم التي كان يمارسها أعداؤها يعـود إلى أن قادة هذه الديمقراطيـات كانوا يضعون حقائق الحرب أمام شعوبهم، وليس بسبـب أنهم كانـوا يمارسون الحمـلات الدعائية كـي يرفعوا من معنويـات شعوبهم؛ في الوقـت الذي كان الديكتاتوريـون الفاشيون يقعون في فخ تصديق الحملات الدعائية التي كانـوا هم يروجون لهـا بين شعوبهم، فقد أطلـع قادة أمثال روزفلـت وتشرشل - حتى لو كان ذلـك يتم بطـرق تغلب عليها صفـة العموميات - مواطنيهم علـى حقائق مؤلمة حول الوضع الذي كانوا يمرون به. ففي أول تقرير حول الحرب وجهه إلى الأمة في شهر كانون الأول، ديسمـبر سنـة 1941 على سبيل المثـال، لم يكتف الرئيس روزفلـت بإخبار الشعب «أن الأخبـار سيئة حتى الآن». بل أضاف قائلاً: «هذه الحرب لن تكون فقط طويلة، وإنما

ستكون صعبة». وسيكون هناك عجز في الموارد: «سوف يتوجب علينا التخلي عن كثير من الضروريات نهائياً». ذكر روزفلت أنه لن يقول للشعب إن هناك الكثير من التضحيات التي يتوجب تقديمها مستقبلاً بل سيكون بانتظار هذا الشعب «شرف» المعاناة.

أما اليوم، فإن الأخطاء القاتلة التي ارتكبتها هذه الإدارة بادية للعيان؛ ذلك أن فريق بوش خَلَطَ بين حملات الدعاية السياسية وبين حقائق حملات الترويج للحرب. فنحن نسلط القسط الأكبر من اهتمامنا على خلق حالٍ من الهلع والطوارئ حول التهديد الذي يمثله صدام حسين بدلاً من ممارسة الحكم بناء على حقائق الأمور.

حالما اتخذ بوش قراره بشن الحرب على العراق، بوشر بوضع حجر الأساس للبدء في حملة شعبية واسعة لهذه الغاية. وكان مبدأ الحرب الوقائية جزءاً لا يتجزأ من هذا الجهد المركز؛ وكذلك بالنسبة إلى الارتفاع المتزايد في وتيرة التصعيد الكلامي بدءاً من أواخر سنة 2001، مروراً بسنة 2002. كان التصعيد الكلامي الذي مارسناه ضد صدام حسين قبل هجمات الحادي عشر من أيلول يركز على تحذيره من مغبة محاولاته لتطوير أسلحة الدمار الشامل، بينما كانت السياسة تركز على احتوائه عبر فرض مزيد من العقوبات. وبعد عدة أسابيع على وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول، استمر المستشارون في الحديث عن ضرورة قيام صدام حسين بالسماح للمفتشين الدوليين بالعودة إلى العراق. حتى أن نائب الرئيس ديك تشيني صرح لتيم راسيت في برنامج «واجه الصحافة Meet the Press» في السادس عشر من شهر أيلول سنة 2001 أن «صدام حسين الآن هو في عنق الزجاجة»، واعترف بعدم وجود أي دليل يربط صدام حسين بهجمات الحادي عشر من أيلول. ولكن، بحلول نهاية تشرين الثاني، نوفمبر، لم يستبعد الرئيس احتمال اتخاذ إجراء عسكري ضد العراق؛ وكان يقول إن العراق سوف يحاسب إذا ثبت أنه يطور أسلحة دمار شامل. عندما ظهر تشيني ثانية في برنامج 'واجه الصحافة' في أوائل شهر كانون الأول، ديسمبر، أثار احتمال أن يكون العراق متورطاً في هجمات الحادي عشر من أيلول مستشهداً بتقرير – تم إسقاطه من التداول فيما بعد – يذكر أن أحد كبار ضباط الاستخبارات العراقية التقى في شهر نيسان، أبريل

سنة 2001 بمحمد عطا، وهو قائد مجموعة خاطفي الطائرات التي ضربت البرجين في الحادي عشر من أيلول. والآن، يقول تشيني بشكل لا يقبل الشك، إن صدام «يحث الخطى باتجاه تطوير أنواع أخرى من أسلحة الدمار الشامل» منذ سنة 1998.

أحياناً، كانت وسائل الإعلام تذكي نار الفتنة. قبل أن أشير إلى أحد الإرهابيين المتورطين في تفجيرات مركز التجارة العالمي سنة 1993، كمثال على ما أقول، قال تيم راسل في المقابلة نفسها التي أجراها مع تشيني في شهر كانون الأول، ديسمبر: «ما نعرفه هو أن العراق يؤوي الإرهابيين». ثم سأل تشيني: «إذا كانوا يؤوون الإرهابيين، فلماذا لا نخرج إلى هناك وننال منهم؟»

في الأشهر الأولى من سنة 2002، استمر التأسيس لهذه الحرب؛ ومع حلول شهر شباط، فبراير، لمحت كوندي رايس إلى الحاجة إلى القيام برد حاسم على نظام مثل النظام العراقي الذي يسعى للحصول على أسلحة دمار شامل. وفي محاولة منه للحصول على شيء من المصداقية، كان تشيني يؤكد أن العراق «يمتلك برنامجاً نَشِطاً لتطوير أسلحة الدمار الشامل»، وأننا «نعرف أن صدام يعمل بنشاط وكد، وبأقصى ما يستطيع من جهد لتعزيز قدراته»، وأنه يرفع من وتيرة «الاتصالات والروابط» بين العراق والإرهابيين. كما أشار تشيني إلى أنه إذا «استدعت الحاجة إلى عمل عسكري»، فإن الرأي العام سوف يدعم هذا التوجه.

أوفد الرئيس نائبه تشيني إلى الشرق الأوسط «للتشاور مع الأصدقاء والحلفاء» في المنطقة بشأن العراق. قبل عودة تشيني من المنطقة، أكد بوش أن العراق «بلد يمتلك أسلحة الدمار الشامل. هذا بلد يحكمه شخص على استعداد لقتل أبناء بلده بالأسلحة الكيماوية؛ وهو شخص لا يسمح للمفتشين بالدخول إلى بلاده، لأن لديه ما يخفيه. لكن المرحلة الأولى من المواجهة معه ستكون عبر التشاور مع حلفائنا وأصدقائنا، وهذا ما سنقوم به بالضبط».

بعد لقائه ببوش فور عودته، قال تشيني إن القادة الذين التقى بهم «لا يقلون عنا قلقاً بعد أن اطلعوا على ما قام به [صدام] من أجل تطوير الأسلحة الكيماوية؛ والبيولوجية،

وسعيه لامتلاك الأسلحة النووية؛ ونحن جميعاً نعرف الماضي القريب حين لجأ إلى استخدام الأسلحة الكيماوية؛». أضاف تشيني قائلاً:

إذا لم تكونوا قد اطلعتم على الحقائق، فإن تحقيقاً مروعاً ينشر هذا الأسبوع في مجلة «نيويوركر New Yorker» حول استخدام صدام للأسلحة الكيماوية سنة 1988 ضد الأكراد. إذا كان التحقيق الصحفي المنشور دقيقاً - وقد طلبت إجراء تحقيق لتأكيد صحة المعلومات الواردة فيه، إذا كان بإمكاننا الحصول على ذلك - فقد شن حملة على الأكراد لمدة استغرقت سبعة عشر شهراً، وقام بقصف مئتي قرية؛ وقد أدى هذا القصف إلى إزهاق أرواح آلاف مؤلفة من العراقيين. ليس هذا هو الشخص الذي نريد أن نراقبه وهو يطور أسلحة أكثر فتكاً - مثل الأسلحة النووية.

لكنه أضاف لاحقاً: «عندما نقول إننا بصدد القيام بفعل ما، فنحن نعني ما نقول؛ إننا مصممون على خوض الحرب ضد الإرهاب. هذه ليست إستراتيجية قصيرة الأمد بالنسبة لنا؛ نحن نعرف أن التاريخ يدعونا للقيام بالتحرك، ولن نضيع هذه الفرصة لجعل العالم أكثر أمناً، وأكثر حرية».

بعد عدة أيام، دفع تشيني الأمور باتجاه تصعيد أكبر عبر استحضاره لسيناريو شديد الخطورة حول شخص مجنون يسعى لامتلاك أسلحة نووية. فقد صرح تشيني لبرنامج Late Edition في محطة CNN: «هذا شخص شرير جداً، كما قال الرئيس؛ وهو يسعى بشكل دؤوب لامتلاك أسلحة نووية الآن، ونعتقد أن هذا شيء يدعو إلى القلق بالنسبة لنا ولكل سكان المنطقة».

امتد النقاش الحامي حول العراق بما في ذلك إصدار بيانات صريحة جعلت الأمور تبدو أقرب إلى التأكيد، إلى موعد بدء الحملة الانتخابية في الخريف حيث تم تضخيمه إلى درجة عالية وثابتة. في أواخر شهر آب، أغسطس سنة 2002، وفي خطاب ألقاه أمام مؤتمر قدامى المحاربين في الخارج في مدينة ناشفيل، قال تشيني: «ببساطة نقول، لا يخامرنا الشك بأن صدام حسين يمتلك الآن أسلحة دمار شامل، وما من شك في أنه يقوم بتحريكها الآن لاستخدامها ضد أصدقائنا، وضد حلفائنا، وضدنا».

العلاقة بين نائب الرئيس تشيني وبين الرئيس بوش كانت دائماً علاقة يكتنفها الغموض إلى حد ما. لكنها علاقة حميمة. فالاثنان يقضيان أوقاتاً طويلة معاً، وتبقى أغلب الأحاديث بينهما طي الكتمان. لكن من الواضح أنه وبالعودة إلى سنة 2002، كان بوش على علم باللغة القوية التي كان تشيني يستخدمها ضد العراق. كان باستطاعة تشيني استخدام لغة أقوى من اللغة التي كان الرئيس يستخدمها. فأثناء حملة إعادة انتخاب الرئيس سنة 2004 على سبيل المثال، كان تشيني يؤدي دور الكلب المهاجم الذي يلاحق كيري بلغة أكثر هجومية من لغة الرئيس نفسه. بالعودة إلى الماضي، يبدو لي واضحاً الآن أن بعضاً من الخطة نفسها قد استخدم في الحملة ضد العراق.

لكن اللغة القوية التي استخدمها تشيني يمكن أن تكون بسبب أن نائب الرئيس غير قادر على الالتزام بالخط المرسوم من قبل رسالة البيت الأبيض. فأحياناً، لا يكون باستطاعته ضبط نفسه وهو يعبر بشكل فج عن آرائه الثابتة أو حتى عجرفته - التي تسبب الضرر للرئيس. تلك كانت روحية اللغة التي استخدمها في خطابه أمام مؤتمر قدامى المحاربين في الخارج عندما أكد تشيني بشكل أساسي أن عودة مفتشي الأمم المتحدة إلى العراق ستكون عديمة الجدوى وحتى مضللة. وهكذا كانت المسألة عندما قال تشيني قبل الغزو مباشرة: «باعتقادي أننا في الحقيقة سوف نستقبل هناك كمحررين». لم يكن ما صرح به ضمن الخطة؛ ذلك أن هذا النوع من التصريحات ساعد في رسم صورة زاهية لعراق لمرحلة ما بعد الغزو تسببت فيما بعد بالأذى للرئيس.

وبينما كان الرئيس يحضّر لشرح قضية الحرب على العراق في الأمم المتحدة، أشارت كوندي رايس إلى موضوع التهديد النووي القادم من العراق بعبارات واضحة جداً في شهر أيلول سنة 2002: «تكمن المشكلة هنا في أن الشكوك ستحوم دائماً حول السرعة التي يستطيع بها [صدام] امتلاك أسلحة نووية. ولكننا لا نريد أن يتحول دخان القنبلة إلى سحابة فطرية».

كانت اللغة الخطابية عالية النبرة في حملتنا للترويج للحرب مستمرة بوتيرة متصاعدة وأكثر جدية؛ وأصبح التهديد النووي الذي يمثله العراق بالإضافة إلى صلته بالقاعدة

موضوعـاً مركزياً بشكل متزايـد في النقاشات حول هذه القضية، وهو ما ساعد على خلق إحساس بالحاجة الملحة للتعامل مع هذا الخطر الداهم والمتفاقم القادم من العراق.

اتفـق الرئيس في الرأي مـع مستشاريه أن من المهم إظهـار الرئيس وقد استنفذ كل الخيـارات الدبلوماسيـة، بعكس الـرأي الذي عبر عنه تشيني المتضمـن أن طريق الأمم المتحـدة عديمة الجـدوى. فقد كان السعي باتجاه إصدار قـرار جديد من الأمم المتحدة يقضـي بدعوة صدام إلى إثبـات براءته، والسمـاح للمفتشين بالعـودة إلى العراق أمراً حاسمـاً في بنـاء الدعم الشعبي لخطوتـه اللاحقة. كان الموضوع الأهـم بالنسبة للشعب الأمريكي هو الحصول على دعم قوي من الحزبين في الكونغرس. وكان هذا كله جزءاً من الحملة. كان من الممكن للأمريكيين أن يدعموا فكرة الحرب في حال تكون لديهم اقتناع بأن بوش استنفد جميع الخيـارات الدبلوماسية، وبأن الكونغرس بجناحيه الديمقراطي والجمهوري قد منحه الدعم القوي المطلوب.

ساهـم الجهد المبذول مـن قبل البيت الأبيض الذي قاده تشيني من أجل تأمين لقاح ضد الحمى الصفراء لكل الشعب الأمريكي، والذي تم الدفع به علناً في الأسابيع الأخيرة مـن سنـة 2002 في تأجيج جو الخوف من أسلحة الدمار الشامـل التي يمتلكها العراق. يبـدو لي أن مـن السخرية الإشـارة إلى أن توقيته كان محسوباً بدقـة، لكنه لم يؤد إلى إرباك حملة الترويج للحرب.

نظراً لأنني كنت أشغل في ذلك الوقت منصب نائب السكرتير الصحفي، لم يكن ينظر إليّ باعتبـاري جزءاً لا يتجزأ من هذه الحملـة، كما أنني لم أكن أُخْطَرُ بكل الخطط التي تروج للحرب. ولكنني كنت أقوم أحياناً ببعض الأدوار التي تهيئ للحرب.

استضاف بوش اجتماعاً لحكام الولايات من الجمهوريين في البيت الأبيض يوم الجمعة الواقع في العشرين من شهر أيلول، أي في الأسبوع نفسه الذي كان بوش قد قام فيه بزيارة ولاية أيوا، وهو أيضاً الأسبوع نفسه الذي صدرت فيه تصريحات لاري ليندسي حول الكلفة المحتملـة للحرب . كان حكام الولايات قد وصلـوا إلى واشنطن في الليلة السابقة لحضور

حفل الاستقبال السنوي الذي تقيمه رابطتهم في خريف كل سنة من أجل جمع التبرعات. وبينما التقى آري بجمهرة من الصحفيين في الصباح، فقد قمت بتمثيله في الاجتماع الآخر. ونظراً لأن وسائل الإعلام لم تدعَ إلى ذلك الاجتماع، فإن الرئيس بوش - وكان قد مضى على تركه منصب الحاكم سنتين - كان صريحاً جداً مع زملائه السابقين الذين هم الآن أصدقاؤه الموثوقون، وحلفاؤه السياسيون. تركزت محلوظاته على أمن البلاد، خصوصاً حول العراق. وكانت صراحة بوش بشأن ما ينوي القيام به في مقاربته للشأن العراقي بيّنةً.

تحدث الرئيس عن اعتقال رمزي ابن الشيبة من قبل السلطات الباكستانية قبل تسعة أيام. كان ابن الشيبة على رأس قائمة تضم أكثر خمسة إرهابيين مطلوبين من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالي لدوره في التخطيط لهجمات الحادي عشر من أيلول، وهجمات إرهابية أخرى. قال بوش: «سوف نعتقلهم الواحد وراء الآخر؛ أما بالنسبة لابن لادن، فمكانه غير معروف لدينا، لكن سلطته قد ضعفت إلى حد كبير».

ثم تحول بعد ذلك إلى موضوع العراق قائلاً: «من المهم أن تعرفوا أن العراق هو امتداد للحرب على الإرهاب؛ بدأنا في المداولات التي تجري في المحافل الدولية بتوجيه الاتهام إلى المذنب. المجتمع الدولي يكره المخاطرة، لكنني أؤكد لكم أنني سوف أبقى صامداً». قال بوش إنه يحاول إقناع قادة العالم لبناء شبكة دعم لهذه الحرب، منبهاً إلى أنه تحدث إلى الرئيس الروسي بوتين صباح ذلك اليوم.

انتقل بوش بعد ذلك إلى الحديث عن الموضوع المفضل بالنسبة إليه، تحدث عن «أهمية نشر الحرية، والحرية الفردية في كل أنحاء العالم». وذكر أن لديه أملاً كبيراً في أن تكون المرحلة الانتقالية في العراق سلمية: «أؤمن بأن تغيير النظام الحاكم يمكن أن يحدث إذا كان لدينا تفتيش فعال. أما صدام حسين فهو شخص معرض لأن يكون رأسه موضوعاً على طبق كبير» إذا مورس عليه ما يكفي من الضغط الخارجي.

أضاف بوش، مبدياً احتقاره العميق لصدام: «إنه رجل متوحش، وقبيح، وبغيض لا بد له من أن يترك مكانه. وهو شخص عصابي أيضاً؛ فقد قام بقتل حراسه الأمنيين

مؤخـراً، أفضل أن يمضي بسـلام؛ لكن لو حدث وأطلقتُ القـوات العسكرية من عقالها، فإني أعدكم بأن الأمر سيتم بسرعة وحسم».

قام بوش بتحذير الحكام من مغبة الوقوع في المصيدة التي يمكن أن تنصبها المعارضة قائـلاً: «لا تتورطـوا في الجدال الذي يوحـي بأنه لا يوجد من يملأ الفـراغ الذي سيتركه صـدام؛ كما أن خطتنا تتضمن التأكيد بأنه لن يكون هناك قطع في إمدادات النفط، فقد قمنا بدراسة كل الخيارات التي تؤمن الإبقاء على تدفق النفط».

أكـد بوش «أن استخدام القوة العسكرية هو خياري الأخير؛ نبوءتي هي ما يلي. اكتبوا مـا سأقول. العـراق وأفغانستان سوف يقودان ذلك الجزء مـن العالم إلى الديمقراطية. سوف يكونان بمثابة وسيطيْن لتغيير الشرق الأوسط والعالم بأسره».

أول سـؤال تلقـاه من الحـكام الحاضرين كان حـول التعليقات التي صـدرت مؤخراً عـن وزيـرة العدل الألمانية التي قارنت بوش بهتلر. كانت ألمانيا على بعـد أيام قليلة من الانتخابـات العامـة. وبالرغم مـن أن المستشار الألماني شرودر وعـد الرئيس بأنه سوف لـن يقـف في وجه خطط بوش، أو يقوم هو أو مجلس وزرائه بما يمكـن أن يعرقلها، فقد خطـب في إحـدى المناسبات العامة معلناً أن معارضته للحـرب على العراق هي جزء من إستراتيجية حزبه للفوز في الانتخابات.

أجـاب بوش بتهذيب: «لا يمكننـي أن أنحـدر إلى مستوى هذه القـذارة» (كونه قورن بهتلـر). مـا أثار غضب بوش أكثر مـن أي شيء آخر هو أن زعيماً دوليـاً تراجع علناً عن التأكيـدات التي قطعها على نفسه في جلسة خاصة، وكان أحياناً يذكر شرودر كمثال على ذلـك. فلو أن بوش قطـع على نفسه عهداً أمام زعيم أجنبـي، يستطيع ذلك الزعيم أخذ هذا الوعد معه إلى المصرف - كان بوش يتوقع الشيء ذاته بالمقابل.

عندما سئل عن موضوع تجييش الرأي العام لصالح الحرب، قال بوش: «هناك قضية يجـب أن يتم شرحهـا، وسوف أشرحهـا للشعب الأمريكـي. العراق يشـكل تهديداً يجب التعامـل معـه بطريقة عقلانية. إذا كان لا بد لنا أن نتحـرك، فإن خياراتي في الواقع هي ثلاثة: الأول، أن يقوم أحد بقتله [أي صدام حسين]، والثاني أن ينتفض الشعب [العراقي]

للإطاحة به، والثالث هو العمل العسكري».

سـأل أحـد الحكام عن توقيـت التحرك العسكـري؛ فأجاب بوشـ: «إذا قررنا القيام بتحـرك عسكـري، فسيكـون ذلك في أسرع وقت ممكـن. ربما استغرق اتخـاذ القرار في الأمم المتحدة بعض الوقت. هذا وقت خطر بالنسبة لنا [على الجبهة السياسية]. ينتابني القلـق من أن الزمـن سوف يفقد خطابي أمام الأمم المتحدة بريقه»، ثم أكد على ضرورة الدفـع بهـذه القضية إلى الأمام كي لا تفقد الزخم الـذي اكتسبته خلال الفترة الماضية. كمـا لاحـظ أن هذه المهمة تهـدف إلى إزاحة صدام وتغيير نظامه مؤكـداً أن ابنيْ صدام وكبار مساعديه سوف تتم إزاحتهم أيضاً.

بعـد ذلك ببضع دقائق، قال بوش: «لو وضع صدام يده على الأسلحة النووية، فسيغير العالم. وإذا فعل ذلك خلال مدة رئاستي، فسأكون قد أخفقت».

في معرضـ إجابته على سؤال آخر، علـق بوش قائلاً: «لا يوجد خطر أكبر من السماح لصـدام حسين تطوير أسلحة دمار شامل. سوف نواجهه. المسألة الآن لا تتعلق بالتفتيش؛ إنها تتعلق بأسلحة الدمار الشامل، وبنزع سلاح النظام الذي يمتلكها. التفتيش هو وسيلة من أجل غاية. إنه شخص شرير. رأيت بنفسي شريط فيديو لصدام وهو يطلق النار من مسدسه على شخص لم تكن تعجبه سياساته. لقد قتل صهريْه».

ختم الرئيس ذلـك الاجتماع بالقول: «إن إعطاء الأمر للوحـدات العسكرية بالتحرك هـو قـرار صعب. لكنني أؤكد لكم أنـه إذا كان لا بد لنا من الذهـاب [إلى العراق]، فإننا سنكـون حازمين وسريعين، وستكون المواجهة عنيفة، ولذلك فإن على الوحدات العسكرية أن تتحرك بسرعة. خلال حرب الخليج، احتاج الأمر إلى قيام عشر طلعات جوية لتدمير هدفين فقط. باستطاعتنا الآن القيام بطلعة جوية واحدة لتدمير هدفين. إذا قررنا القيام بشـن الحرب، فإننـا سوف نستعمل كل القـوة العسكرية التي يملكهـا الجيش الأمريكي. الآن، إذا كان المشهـد يشـير إلى أنه يفقد سيطرته على زمـام السلطة، فأنا واثق من أنه آيـل إلى السقوط. فكما تعرفون، أنا مؤمن بقوة الحرية». كما أكد على أهمية أن «يتحدث القائـد بوضوح»، وأن يكون «حازمـاً، وذا مصداقية، وقوياً، وفعالاً». وأعقب ذلك بالتعبير

عـن اقتناعـه «أن الحرية هي مبدأ إنساني. فنحن نؤمن بأن كل فرد في العالم له أهميته، وليس فقط المواطن الأمريكي».

بعـد انتهـاء الاجتماع، ومـن على المنـبر الصحفي المنصـوب خارج المدخـل الرئيس للجناح الغربي، وصف جون رولاند، حاكم ولاية كنيتيكيت الذي كان يشغل حينها منصب رئيـس رابطـة الحكام الجمهوريين ذلـك الاجتماع بأنه كان «من القلـب إلى القلب» حول العـراق. لكن ذلك الاجتمـاع كان أيضاً مهرجانـاً صاخباً حـول الإستراتيجية ضم قائد الحملة وبعضاً من الأعضاء المهمين في فريقه – وهم حفنة من السياسيين المحليين الذين بمقدورهم القيام بدور حاسم في جمع الدعم الشعبي لقرار الغزو.

في منتصـف شهـر تشرين الأول، أكتوبـر، ألقى بوش خطاباً رئيسـاً حدد فيه معالم التهديـد في كل مـن ولايتيْ سينسيناتي وأوهايو. وفي وقت لاحـق من الشهر نفسه، وافق الكونغرس بأغلبيـة ساحقـة، وبطريقة فيها الكثـير من التضامن الحزبـي، على قرار مشـترك من كلا الحزبين أطلق بموجبه يد الرئيس للقيـام بعمل عسكري ضد العراق. زاد هـذا الدعم الهائل مـن الكونغرس من موقفنا أمام الأمريكيين، وأقنع العديد منهم بضرورة استخدام القوة العسكرية ضد العراق. ونظراً لأن الكونغرس وقف وراء الرئيس بهذه القوة، فلا بد أنه يسير في الاتجاه الصحيح.

في منتصـف شهر تشرين الثـاني، نوفمبر سنة 2002، قبل بـدء النقاش حول العراق الجديد في الأمم المتحدة بوقت قصير، تزوج سَلَفي آري فليشر، وأخذ إجازة شهر العسل. استلمت مهامه طيلة فترة غيابه. بعد يومين، أقر مجلس الأمن قراراً يحمل الرقم 1441، وقضى هذا القرار بإعطاء صدام حسين «فرصة أخيرة» لإثبات براءته من دون شروط وإلا فإنـه «سيتحمل العواقب الوخيمـة». بقيت ولمدة اثني عشر يوماً في واجهة الحملة الدعائية السياسية التي تحضر للبدء في المواجهة العسكرية – كنت فيها أجري المقابلات الصحفية، وأحضر الاجتماعات الرئاسية، وأشارك في بعض المناقشات على مستوى عالٍ.

أُنشِئَـت مجموعـة العراق التابعـة للبيت الأبيض صيف سنـة 2002 لتنسيق عملية الترويـج للحرب بين أفراد الشعب الأمريكي. وقـد استمرت في العمل كمجموعة وسائل الاتصـال الإستراتيجيـة بعـد أن أزاح الغـزو نظام صـدام حسين عـن السلطة، وكنت

أشـارك في اجتماعاتهـا بعد أن عينـت في منصب السكرتير الصحفـي للبيت الأبيض. حضـرت عدة اجتماعات لهـذه المجموعة عندما كنت نائباً للسكرتير الصحفي بدلاً من سلفـي حينمـا لم يكن بمقدوره حضور تلـك الاجتماعات - بما في ذلـك، في فترة شهر تشرين الثاني، نوفمبر.

أشار بعض المنتقدين إلى أن خططاً شريرة تتم مناقشتها في اجتماعات تلك المجموعة بهـدف تضليـل الجمهور بشـكل متعمد. لم يكـن الأمر كذلـك. كانت هنـاك العديد من المناقشـات حول كيفية ترتيـب الأهداف والأفكار، وجعل روايتنـا للقصة مؤثرة؛ ولكن لم تكـن هنـاك أي مؤامرة تتعمـد تضليل الرأي العـام. على العكس من ذلـك، كانت هناك مناقشـات صريحة حـول استراتيجيات وسائل الاتصـال وإيصال الرسائـل ترتكز على أرضية الأساليب المألوفة في الحملات الدائمة.

في ذلـك الاجتمـاع الـذي حضرته في شهـر تشرين الثـاني، نوفمبر، الـذي عقد بعد مـدة قصيرة على صـدور القرار الجديد لـلأمم المتحدة، تركـزت المناقشة حول واحدة مـن الرسائل الرئيسة التـي أردنا إيصالهـا إلى الشعب الأمريكي حينهـا - الحاجة إلى استخـدام سياسة عدم التساهل تجاه النظام العراقي، وعدم القبول بأي نوع من التمويه أو الخـداع من قبل صدام حسين. فقد دعا قـرار الأمم المتحدة إلى التعاون الكامل وغير المشـروط، والالتزام بالقرارات الدولية؛ وكان علـيّ أن أؤكد على روحية هذه الرسالة من علـى المنصة، وهي رسالة كان الرئيس قد أكد عليها خـلال اجتماعه مع أمين عام الأمم المتحدة كوفي عنان، والذي حضرته حينها.

بالرغم من أن حدسي كان يقول لي إننا ذاهبون إلى الحرب، فإنني لم أستوعب حينها أن رسائلنـا كانـت تظهر بوضوح وذكاء كـم كان بوش مصمماً على تغيـير النظام وذلك منـذ الأيـام الأولى لقراره مواجهة العـراق؛ فقد كانت الكلمة التـي ألقاها من على منبر الأمم المتحـدة في شهر أيلول بمثابة إنذار- فإما تقـوم الأمم المتحدة بنزع أسلحة صدام حسـين، أو أن الولايات المتحدة ستقوم بذلـك. كانت رسالة عدم التساهل مؤشراً إضافياً علـى تصميم الرئيس على الإطاحـة بالنظام بالقوة. لم يكن بمقدور صدام إثبات براءته

بصـورة كلّيّـةً. فقد كانـت سلطته تستنـد إلى وحشيته، وإلى قدرته علـى تصوير النظام بأنـه أقوى مما هو عليه من أجل إخافة شعبه وكذلك إخافة أعدائه المحتملين مثل إيران. أعطـت كل من سياسة عـدم التساهل وقرار «الفرصة الأخـيرة» الجديد بوش الكثير من المساحة من أجل المناورة، وحجةً كبيرةً لسياسته المتضمنة فرض تغيير النظام بالقوة.

بطبيعـة الحال، سهّل صدام حسـين نسبياً على إدارة بوش القول إنها لا تملك خياراً آخـر سوى القيام بغزو العـراق. فبالرغم من السماح لمفتشـي الأسلحة التابعين للأمم المتحـدة بالعودة إلى العـراق، فإنهم منعوا من زيارة بعض المواقع، وكانت التسجيلات التي قدمت لهم غير كاملة، وغير دقيقة؛ وقد ذكر المفتشون أنفسهم أن مهمتهم في ظل هـذه الظروف سوف تستغـرق شهوراً قبل أن يكون بمقدورهـم التأكد من أن صدام قد التـزم/أو لم يلتزم بقـرارات الأمم المتحدة. وقد توصل معظـم الأشخاص الذين كانوا يراقبون ما يجري عن كثب إلى الاستنتاج بأن «صدام يمارس حيله القديمة نفسها. من الواضح أن لديه ما يخفيه. لقد مُنِحَ الفرصة الأخيرة. وحان وقت التحرك». وهكذا فقد بدأنا بالتحرك.

أدار الرئيس بوش الأزمة بطريقة ضمنت بشكل كلي تقريباً أن استخدام القوة سيكون الخيـار الوحيد الممكن. قام بذلـك وفي جعبته التحذير الذي أطلقه في الكلمة التي ألقاها في الأمم المتحـدة في شهـر أيلول، بالإضافـة إلى إعطاء الأوامر بزيـادة الأسلحة وعديد القوات العسكرية في المنطقة، والتي لا يمكن لها ولأسباب لوجستية البقاء في تلك المنطقة لأجـل غير مسمى مـن دون أن يتم استخدامها. إنه أمر مثير للسخرية حقاً؛ ذلك أن أهم القواعـد التي يتوجب على السكرتير الصحفي إتباعها هي: لا تقيد يديّ الرئيس أبداً إذا لم تقتضِ الضـرورة القصوى ذلك. وهذا يعنـي أنه لا يجوز لك أبـداً أن تدلي بتصريح يمكـن أن يحد مـن حرية الرئيس في تغيير المسـار، أو القيام بخيار محـدد في المستقبل. ولكـن في المرحلة التي كان يتم الإعداد للحرب، سمح مستشارو الرئيس ليديّ هذا الأخير أن تقيـدا، وبذلـك فقد وضعوا بوش في موقع جعل من مسألـة تجنب الحرب أكثر صعوبة من القيام بشنها.

حقـق الرئيـس ومستشاروه عدة مكاسب عبر خلق هـذا الدعم الهائل للحرب. فقد جعـل مهمة خصومه السياسيين صعبة إلى درجة استثنائية، واضعاً جميع من عارضوا شـن الحرب في موقـع من يجادل ضد قضية تحولـت إلى ما يشبه الأمـر الواقع. أوقع صـدام حسين في مـا يشبه المصيدة، وأوضح أنه لم يعد مقبـولاً بعد الآن استمرار هذا الدكتاتـور بالمماطلـة، والتلاعب بالمفتشين. كمـا أجبر دولاً أخرى - مـن بينها روسيا وفرنسـا التي كانت تنحاز أحياناً إلى جانب العـراق - على اتخاذ قرارات صعبة بشأن السمـاح بغزوٍ تقوده الولايات المتحـدة من أجل وضع حد لتهديـد واضح ووشيك يمثله نظام صدام حسين.

الأهـم من هذا وذاك، فقد أحبط البيت الأبيض جميـع المداولات والمناقشات حول الأهـداف الأساسية والخطط الطويلة المدى لهذا الغـزو. استطاع الرئيس ومستشاروه تجنـب النقاش حول المسائل الكبرى المتعلقة بمـا يمكن أن يحدث مستقبلاً نتيجة لهذا الغـزو، وذلك عبر الدفـع بمسألة أسلحة الدمار الشامـل إلى الواجهة، ومن ثم تراجع الحديـث عن الموضوع الأكثر أهميـة، والمتعلق بمستقبل الشرق الأوسط باعتباره مجرد تهديـد طارئ علـى المدى القصير تجـب معالجته الآن. فمن الـذي سيتولى الحكم في العراق؟ وما الذي ستكون عليه ردة الفعل في المنطقة على هذا الغزو؟ وكم يلزم الولايات المتحدة من الوقت للبقاء في العراق؟ وأخيراً وليس آخراً، كيف سيتم حل التوترات بين التجمعات العرقية والدينية في البلاد؟

لم تظهر سوى قلة قليلة من هذه الأسئلة على شاشة الرادار الوطنية أثناء الإعداد لهذه الحـرب. لكن كل هذه الأسئلة كانت ستلاحق الرئيس والأمة بأسرها من جديد في السنين اللاحقـة عندمـا أصبـح من الواضـح أن المنطق الذي طرحـه الرئيس لتعليـل لجوئه إلى الحـرب -التهديد الذي تشكله أسلحة الدمار الشامل، وعلاقة العراق بالإرهاب- كان أقل مـن مقنع. إن الخداع وغياب الصـدق اللذين تميزت بهما الحملة التي شنتها هذه الإدارة للترويج للحرب سيقوضان إلى حد كبير صدقية المرحلة الثانية من رئاسة بوش برمتها.

عندما كان بوش بصدد اتخاذ قراره للسعي إلى تغيير النظام الحاكم في العراق، فقد كان من الواضح أن فريق الأمن القومي لديه لم يقم بما يكفي للتخفيف من حدة اندفاعه في اتخاذ هذا القرار، ولمساعدته في الاستيعاب الكامل لمحتوى هذا الصندوق المملوء باللهب الذي كان يفتحه، والمخاطر الناجمة عن ذلك. أنا أعرف الرئيس جيداً؛ ولذلك فأنا واثق من أنه لو قام أحد بإعطائه البلورة السحرية بحيث يمكنه عبرها استكشاف الكلف الحقيقية للحرب - أكثر من أربعة آلاف من الجنود قتلوا، وثلاثين ألفاً جرحوا، وعشرات الآلاف من المدنيين العراقيين الأبرياء قتلوا - لما اتخذ أبداً القرار بشن الحرب بغض النظر عما يمكن أن يقوله، أو يشعر أن عليه قوله علناً في هذه الأيام.

وبالرغم من أن أحداً لا يملك مثل هذه البلورة السحرية، فقد كان من السهولة بمكان إعداد دراسة متأنية تتضمن فهماً شاملاً لظروف وتاريخ العراق ومنطقة الشرق الأوسط وأخذها بعين الاعتبار في عملية اتخاذ القرار. كانت مسؤولية تقديم مثل هذه الدراسة تقع على عاتق مستشاري الرئيس الذين أخفقوا إخفاقاً ذريعاً في القيام بذلك. كان وزير الخارجية كولن باول الوحيد من بين جميع مستشاريه الذي أثار شكوكاً حول الحكمة من هذه الحرب. أما بقية أعضاء فريق السياسة الخارجية فقد كانوا منهمكين في مسألة تغيير النظام الحاكم، أو مهتمين على ما يبدو بالتكيف مع غرائز الرئيس وأفكاره بدلاً من طرح تساؤلات بشأنها، أو إعطائه دروساً حول المنطقة، كما كانت الحال بالنسبة لكوندي رايس.

أما المشكلة الأساسية الأكبر فقد تجلت في الطريقة التي قرر فيها مستشارو بوش متابعة الحملة السياسية الدعائية لترويج الحرب بين الأمريكيين. كان كل ذلك جزءاً من الطريقة التي كان البيت الأبيض يمارس نشاطه بها، وكان ذلك هو الأسلوب المتبع في واشنطن؛ ويبدو أن أحداً لم يكن يرى أي مشكلة في استعمال هذه المقاربة في قضية خطيرة مثل القيام بعملية شن الحرب. كان يمكن لحملةٍ تروج للحرب أن تكون مقبولة أكثر لو ترافقت مع درجة عالية من الصدق والصراحة؛ لكن الأمر لم يكن كذلك. كانت أغلب الحجج التي سيقت مدققة بعناية ويمكن إثباتها - وبالتحديد تلك الحجج التي طرحت

عـبر ملحوظات أبداها الرئيس، أو منتديات كتلـك التي قدم فيها باول عرضه في مجلس الأمن في شهر شباط، فبراير سنة 2003. ولكن في الوقت الذي تصاعدت وتيرة الحملة، فقـد تم التقليـل من شـأن التحذيرات ذات المصداقيـة، أو أنها ركنـت جانباً. تم تجاهل المعلومـات الاستخباراتية المضـادة، وكانت تعامل بكثير من عـدم الاكتراث. كانت الأدلة المستندة إلى مصادر موثوقة من الوسط الاستخباراتي تضاف إلى معلومات استخباراتية أقـل مصداقيـة. فقد تمـت إضافة التهديـد النووي إلى تهديـدات الأسلحـة البيولوجية والكيميائيـة لخلق إحساس متعاظم بالخطر الداهـم، وضرورة مجابهته. أعطيت مسألة دعـم الإرهاب ثقلاً أكبر عبر اللعب على الوتر المخادع الزاعم بوجود علاقة بين القاعدة والعـراق. عندما وضعت هذه كلهـا في سلة واحدة، أصبحت القضيـة تمثل «خطراً كبيراً ومتزايداً» لا بد من مواجهته بصورة عاجلة.

اعتقـد بعض مستشاري بوش، آخذين تاريخ صدام بعـين الاعتبار، أن من الحصافة توقـع الأسوأ؛ أما بعضهـم الآخر، مثل تشينـي، ورمسفيلد، وولفويتز، فقـد كانوا يسعون بشكل واضح لتنفيذ أهدافهم الخاصة بهم.

ربمـا كانت أهداف تشيني الشخصية هي الأكثر أهمية بين كل تلك الأهداف، آخذين بعـين الاعتبار علاقته الوثيقة بالرئيس، وتأثيره عليه. وهي أيضاً الأجندة التي ربما بقيت طي الكتمان بسبب شخصية تشيني، ونزوعه نحو السرية. ربما كان دافعه هو إكمال المهمة التـي بدأها عندما كان وزيراً للدفاع سنة 1991، عندمـا هزمت الولايات المتحدة صدام حسـين، ودفعـت بقواته خـارج الكويت؛ إلا أنهـا لم تتقدم حينها نحو بغـداد لوضع نهاية لنظـام حكمه. كان تشينـي أيضاً مرتبطاً ارتباطاً عميقـاً بالسياسة الاقتصادية ومسائل الطاقـة. من الممكن أنه كان ينظر إلى مسألة إزاحة صدام حسين على أساس أنها فرصة توفر لأمريكة ممارسة تأثير أكبر على احتياطيات العراق من النفط، وهو ما يشكل فائدة لأمننا الاقتصادي والقومي.

علـى أي حـال، عندما تقـوم شخصيات لهـا ثقلها مثـل تشيني ورمسفيلـد وولفويتز بالسعـي لتحقيق أهدافها وخططهما عن طريق الدفع بها إلى الرئيس بغية تنفيذها، فإن

تلك مشكلة واضحة. كان على كوندي رايس، مستشارة الأمن القومي، بصفتها المستشارة الأعلى للرئيس للشؤون الخارجية مواجهة أولئك المستشارين الأكثر خبرة والشديدي التمسك بآرائهم بدلاً من إفساح الطريق أمامهم. لكن تجاربي التالية مع كوندي ساقتني إلى الاعتقاد أن أكثر ما كان يهمها هو معرفة موقف الرئيس، ومن ثم تنفيذ رغباته في الوقت الذي تبذل جهداً سطحياً لمساعدته على استيعاب الاعتبارات والنتائج المحتملة كافة.

ما تقدم، يقودنا إلى سؤال مهم أثاره المنتقدون يتعلق بالرئيس نفسه. هل الرئيس غافل من الناحية الفكرية، أو كما يؤكد بعضهم، هل هو غبي فعلاً؟ يبدو الاتهام الأخير بالنسبة لي انعكاساً محزناً للمناخ السياسي السائد اليوم المليء أو المُشْبَعْ بالأوصاف السلبية التي يطلقها بعضهم على خصومهم، والنبرة العالية للكلام العاطفي الذي يستحوذ على اهتمام أكبر من الاهتمام الذي يناله الخطاب المتعقل والمتمدن. إن بوش يمتلك من الذكاء ما يكفي لكي يكون رئيساً. ولكن أسلوبه في القيادة، كما ذكرت آنفاً، يعتمد على حسه الفطري أكثر من اعتماده على النقاش الفكري المعمق. يتركز فضوله الفكري على معرفة ما هو بحاجة إليه كي يقوم بتحديد سياساته، وتبنيها، والدفاع عنها. يقر بوش بحماسة بأهمية الدور الذي يلعبه الترويج للسياسات وتسويقها في عملية ممارسة الحكم هذه الأيام. وهكذا فإن مثل هذه المقاربة تبدو مفهومة إلى حد ما. ولكن كان على مستشاريه أن يقروا كم هي مؤذية قيادته الفطرية، وفضوله الفكري المحدود عندما تصل الأمور إلى حد اتخاذ قرارات مصيرية؛ وعلى ضوء المعطيات الموجودة حالياً، أصبح من المنطقي وضع إشارات استفهام حول قدرته على المحاكمة العقلية. من المؤسف قيام بعضهم بتصويره كشخص يعوزه الذكاء، ولكن هذه الصورة هي نتاج لأخطائه – التي كان من الممكن منع وقوعها لو أن معتقداته خضعت للتمحيص بشكل صحيح، وخضعت لانتقادات من كبار مستشاريه. فقد سمح كبار مستشاري بوش، وبالأخص من أعضاء فريق الأمن القومي، له بأن يكون في هذا الوضع الذي هو فيه هذه الأيام. وكانت نتيجة ذلك أن مصداقيته تفتتت إلى شظايا، وتضرر موقعه على ما يبدو، إلى درجة لا يمكن إصلاحها.

تتحمل عقلية الحملة الدائمة بعض اللوم. فأثناء مدة هذه الحملة، كانت الأولوية تتمثل في الحاجة إلى حشد الدعم الشعبي عبر تقديم أقوى عرض ممكن لقضيتك؛ بغض النظر عن كون قضية الحرب والسلام هذه مقاربة صادقة من الناحية الفكرية أم لا. الانضباط في توجيه الرسالة كان يعني تجنب السلوك القويم - على سبيل المثال، المراوغة في عملية رفض الأسئلة الموجهة إليك على أساس أنها مجرد «توقعات»، طالما أن قرار المضي في طريق الحرب ما يزال قيد الدرس. في جو واشنطن المعبأ حزبياً، تعد الصراحة نوعاً من المخاطرة؛ إذ يمكن للنقاد أن يلووا الكلمات ويوجهونها حيث يشاءون، وحيثما تقتضي مصلحتهم، ضاربين عرض الحائط بالإستراتيجية المخطط لها بشكل جيد.

في النهاية، يتحمل بوش بالطبع المسؤولية الكاملة عن غزو العراق. فهو من اتخذ قرار الغزو، وهو الذي وقّعَ على إستراتيجية الترويج للحرب التي لا يمكن وصفها بالصادقة أو الصريحة. يجب التعامل مع موضوع خطر كموضوع الحرب بانفتاح واستقامة. وهذا أقل ما يستحقه الشعب الأمريكي، وكذلك وحداتنا المقاتلة.

كان الجدل الدائر حول الكيفية التي استطاع بها بوش جر الأمة إلى الحرب على وشك أن ينفجر. وكانت الحرب الحزبية المبنية على حال دائمة من الارتياب على وشك أن تندلع. فقد سبق وبُذِلَ الكثير من الجهد للترويج للحرب، وتم عرض الخطط التفصيلية لإسقاط نظام صدام حسين. لكن في المقابل لم يبذل جهداً موازياً، ولم تهدر طاقات وموارد من أجل الاستثمار في التخطيط لفترة ما بعد سقوط النظام، وبدء عهد الاحتلال. كان التخطيط والإعداد غير الكافيين واضحين وضوح الشمس في أعقاب هذا الغزو بعد أن طغى التمرد على المشهد، واغتنم الإرهابيون الفرصة ليتسببوا في أذى كبير للقوات الأمريكية، فقد ارتفع عدد الضحايا، وبدأ الشعب العراقي يعاني من دوامة عنف لا نهاية لها.

وقد تحولت الحرب إلى معضلة شكلت تحدياً متزايداً للإدارة. فبعد أن قام بخلق جو من الارتياب الذي أدى إلى تفاقم الحرب الحزبية، لم يعد بمقدور البيت الأبيض دعوة الحزب الآخر لتقديم الدعم له في الوقت الذي كان بأمس الحاجة إلى مثل هذا الدعم - من أجل الحرب، وكذلك من أجل قواتنا التي لبت نداء الواجب لخوضها. كانت الأسئلة

حـول الخداع بشأن قضية الحرب تحوم فوق رؤوس الجميـع. أما الحقيقة فقد كانت بين ناريّ سياسة الحزبين المتصارعيْن.

ولكن، ونحن نلج إلى شهر أيار، مايو سنة 2003، حين انتهى الجزء الأول من الحرب بنجـاح، وحـين وقف الرئيس مزهواً أمـام الشعب الأمريكي، لم يكـن باستطاعتي، وأنا داخـل تلك المعمعة، استشراف الحروب السياسيـة القادمة. كما لم يكن يدور في خلدي أن فرصـة العمـر سوف تكـون في متناول يدي، وأنهـا ستضعني في الخطـوط الأمامية للمعارك القادمة.

obeikandl.com